ترجمة : د. مازن مطبقاني

صراع الغرب مع الإسلام

استعراض للعداء التقليدي للإسلام في الغرب

آصف حسين





صراع الغرب مع الإسلام

أصف حسين

ترجمة : مازن مطبقاتي

لا تقصد هذه الدراسة إلى توجيه الاتهام، أو إلقاء المسئولية، ولكن هدفها هو طرح مجموعة من الحقائق تُبرِز فهم الغرب للإسلام ....

إن هذه الدراسة تحاول أن توفر الحقائق التي تعكس التعصب، والكره، والعداء المستبطن في التفكير المعادي للإسلام في الغرب، ومن المؤمل أن تضع القواعد للباحثين في فهم الإسلام، وتوعيتهم بالأخطار المشحونة في التقليد المعادي للإسلام، ففي عالم مليء بالمعتقدات المختلفة التي تتعايش معًا من الضروري الفهم المتبادل لآراء الآخرين كما هي ..

المؤلف : آصف حسين

المملكة العربية السعودية - الرياض
هاتف 96614539883
فاكس 96614532157
ص.ب 242193 الرمز البريدي 11322
البريد الإلكتروني daralwae@gmail.com



صراع الغرب مع الإسلام

استعراض للعداء التقليدي للإسلام في الغرب

صراع الغرب مع الإسلام

استعراض للعداء التقليدي للإسلام في الغرب

آصف حسين

ترجمة

د. مازن مطبقاني

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

ⓒ دار الوعي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حسين ، اصف

صراع الغرب مع الإسلام: استعراض للعداء التقليدي للاسلام في الغرب . / اصف حسين ؛ مازن صلاح مطبقاني . - الرياض ، ١٤٣٤هـ

١٥٢ ص ؛ ١٤ × ٢١ سم

ردمك : ٢-٤-٩٠٣٣٠-٦٠٣-٩٧٨

١- الاسلام والغرب ٢- الاسلام دفع مطاعن

أ . مطبقاني ، مازن صلاح (معد) ب.العنوان

ديوي ٢١٤,٩٤ ١٤٣٤/١٩٨٥

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ



ص . ب ٢٤١٤٧٠ الرمز البريدي ١١٣٢٢ الرياض المملكة العربية السعودية

هاتف ٠٠٩٦٦١١٤٥٣٩٨٨٣ - فاكس ٠٠٩٦٦١١٤٥٣٢١٥٧

markazfekr@hotmail.com

الموقع الإلكتروني www.al-fikr.com


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

تقديم الترجمة

كان أول اكتشافي لكتابات البروفيسور آصف حسين حين وجدته مشاركًا في تحرير كتاب بعنوان: (الاستشراق، الإسلام والإسلاميين)، الذي صدر عن دار أمانا بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م)، وكان أول بحث في الكتاب بعنوان: (أيديولوجية – المسار الفكري –للاستشراق)، وشاء الله أن أقوم بترجمته لمجلة جامعة الإمام؛ لينشر في العدد السابع، بتاريخ: ربيع الآخر ١٤١٣هـ/١٩٩٢.

وانعقدت الصلة بيني وبين المؤلف راسلته في كلية ليستر (Leicester) المتوسطة حتى كان عام ١٤١٠هـ، وغزا العراق الكويت، فتداعت الجيوش الأجنبية؛ لإنقاذ الكويت، في هذه الأثناء الذي توقف فيه الطيران، وفي أثناء إعدادي بحث الدكتوراه وصلني كتاب: (صراع الغرب مع الإسلام: استعراض للعداء التقليدي للإسلام في الغرب) عام ١٤١٠هـ (١٩٩٠م) يطلب مني المؤلف ترجمته إلى العربية، أو البحث عمن يترجمه. فاستقر رأيي أن أقوم بترجمته، وبالفعل ترجمت الكتاب، ولكن تعثر الحصول على ناشر من وقت ترجمته عام ١٤١٢هـ حتى عام ١٤٢٠، حتى ظن الناشر الأول –وهو الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالمدينة المنورة- أنني أقدمه لطبعة ثانية؛ نظرًا لأن المسّودة كتب عام ١٤١٢هـ.

وفي هذا الوقت الذي صدر فيه الكتاب الذي كانت الشيوعية تترنح، أو تلفظ أنفاسها -كما يقولون-؛ حيث سقطت في عقر دارها في روسيا، وبدأت تتهاوي في أوروبا الشرقية، فالتفت الغرب يبحث عن عدو، فلم يجد سوى الإسلام والمسلمين، فأعلن العداء للإسلام والمسلمين، وبدأت أقلام كتاب الصحف والإعلاميين، وانساق معهم طائفة من الأكاديميين في هذه العداوة حتى إن قسيسًا من معهد هارتفورد اللاهوتي كتب في نشرة صادرة عن مكتب العلاقات الإسلامية النصرانية يتساءل: «من الشبح الجديد؟»متعجبًا أن يتخذ الإسلام ذلك العدو؛ لتجتمع كلمة الغرب على معاداته ومحاربته، وليس ثمة مبرر لمثل هذه العداوة والحرب، ولقد تعجبت

حينها من اهتمام رجل دين نصراني بهذه العداوة للإسلام[1].

أما البروفيسور آصف حسين، فقد ظلت المراسلات بيني وبينه؛ حيث علمت أنه يعمل في منظمة اسمها حقوق الإنسان الإسلامية، ربما قصد منها أن تكون في مواجهة حقوق الإنسان الدولية، ولكن أعتقد أنه لم يكتب لها النجاح؛ لأنه لم تقف دولة إسلامية خلف هذه المنظمة تقويها وتدعمها. ولكن الأستاذ آصف ظل نشيطًا في المجال الأكاديمي يهتم بالحركات الإسلامية، والتطورات في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فكتب عن كل من مصر، وباكستان، وإيران، وهذه الكتب هي الآتية:

- سياسات النخبة في دولة إيديولوجية: دراسة حالة باكستان، ١٩٧٩.
- ميلاد بنجلاديش: الدور السياسي للبعثات التنصيرية، ١٩٨٠.
- الأساليب النظرية الغربيى للنظام السياسي للدول الإسلامية: نقد عام ١٩٨١.
- ما وراء الأصولية الإسلامية: علم اجتماع الإيمان والعمل، ١٨٩٢.
- الحركات الإسلامية في مصر والباكسان وإيران: بيليوغرافيا تفصيلية، ١٩٨٣.
- وجهات نظر سياسية حيال العالم الإسلامي، ١٩٨٤.
- الاستشراق والإسلام والمتخصصين في الإسلام (تحرير ومشاركة)، ١٩٨٤.
- إيران الإسلامية: الثورة والثورة المضادة، ١٩٨٥.
- الإرهاب السياسي والدولية في الشرق الأوسط، ١٩٨٨.
- صراغ الغرب مع الإسلام: استعراض للعداء التقليدي للإسلام في الغرب، ١٩٩٠.
- حزب الله، ٢٠٠١ .
- مدن المدمجة: اكتشاف التطور الثقافي لمدينة ليستر البريطانية بالاشتراك مع آخرين، ٢٠٠٣.
- التربية الحديثة بالاشتراك مع محمد هارون، ٢٠٠٥.
- الثورة الثقافية الباكستانية: بناء إمبراطورية إسلامية جديدة، ٢٠١١.
- الحضارة الإسلامية: من التنوير حتى الأصولية ٢٠١٢.

هذه الكتابات تدل على اهتمامات البروفيسور آصف الواسعة التي تمتد من

(١) - (لماذا يخوفون الغرب بالإسلام؟) (المسلمون، ٤/جمادى الآخرة، ٢١ديسمبر ١٩٩٠).

الاهتمام بالإسلام، وحضارته، ونظامه السياسي إلى أوضاع المسلمين المعاصرة، وبخاصة في الجوانب السياسية، كما أن له اهتمام خاص بالتربية والتعليم. ويبدو أن كتاباته حول العلاقة بين الإسلام والغرب انطلقت من عدة جوانب، أولها: صلة الحركات الإسلامية التي يُطلق عليها الأصولية بالغرب، ونظرة الغرب لهذه الحركات، كما ظهر اهتمامه من خلال المناصب التي تولاها والأعمال التي شارك فيها في قضية التعايش الثقافي، ولكنه كان مؤمنًا دائمًا بأن للغرب مواقف سلبية من الإسلام والمسلمين.

أما المناصب التي تولاها، فمن أولها التدريس في كلية ليستر المتوسط حينًا من الدهر، وتأسيس وإدارة دار نشر تولت نشر بعض مؤلفاته، ومنها هذا الكتاب الذي أقدمه هنا في ترجمته العربية، كما عمل زميلًا زائرًا في جامعة ليستر مركز تاريخ الأديان والتعددية السياسية، وهو -كما يقول موقع الجامعة- خبير بالشأن الثقافي، وعمل مستشارًا لدى عدد كبير من المؤسسات العامة والخاصة في موضوعات تمتد من التوظيف إلى التسويق في المجتمعات المتعددة الثقافات، كما أنه عرف عند القوم (في بريطانيا والغرب عمومًا) بأنه خبير بأسباب الإرهاب، كما عمل في مجال الخدمة المدنية والدبلوماسية، ولكن قضى معظم عمره في المجال الأكاديمي متخصصًا في الحضارة الإسلامية، والتعايش الثقافي.

أما موقفه من عداء الغرب، فهو منطلق من تقليد معاد للإسلام، وأن الإعلام الجماهيري تحت سيطرة وكالات الإعلام الغربية ذات التأسيس المتين والمعقد، وقد وجدت العواطف المعادية للمسلمين والعنصرية منذ الحروب الصليبية، ولكنها تتخذ أشكالًا متخلفة في أوقات مختلفة، ويري آصف أن الإعلام الغربي أداة قوية، وتؤثر في الرأي العام في الديمقراطيات الغربية، وبهذه الطريقة خدم المصالح الاقتصادية السياسية للغرب، وفي البلاد التي عاش فيها طويلًا حتى تجاوز السبعين سنة (من مواليد ١٩٣٨)، يري أن المسلمين يواجهون التمييز ضدهم في التوظيف في بريطانيا، وفي الأعمال، كما أن المسلمين يتعرضون للهجوم على مساجدهم، وعلى أي مسلم يكون مرتديا الزي الإسلامي.

وقد تناول آصف حسين عداوة الغرب للإسلام من خلال سبعة فصول، بدأها بموقف النصرانية من الإسلام، وأن عدم الاعتراف بالإسلام؛ الدين الذي جاء مصدّقا ومهيمنا على ما قبله من الأديان، نبع عدم الاعتراف والتصديق به من رجال الدين النصارى الذين خشوا على مناصبهم ومكاسبهم الدنيوية[1]، وتأكدت هذه العداوة من رجال الدين النصارى حين قادوا الحملات الصليبية على مدى مائتي عام، وتحدث في فصل تال عن الرحالة الغربيين، والتجسس، وكيف أن كثيرًا من هؤلاء الرحالة قاموا بمهمات تجسسية وسياسية لصالح دولهم، وضد العالم العربي والإسلامي، وقاموا بأدوار نفذوا فيها المخططات الاستعمارية لبلادهم.

ثم خصص فصلًا للحديث عن الاستشراق والاستعمار، وأكد نظرية إدوارد سعيد حول العلاقة بين القوة والهيمنة، وأن الاستشراق استخدم لتنفيذ الأغراض الاستعمارية، وتظهر أهمية أن يترجم مثل هذا الكتاب إلى اللغة العربية -ليس للمؤلف مترجمًا سوى هذا الكتاب والبحث المذكور أعلاه- هو قلة الأبحاث المنشورة باللغة العربية في مثل هذه الموضوعات التي تكشف فيما تكشف نشاط الاستشراق وأساليبه، وليقدم للمسلمين حقيقة العالم الأوروبي، وشدة مكره بالإسلام والمسلمين، وحرصه الشديد على إذلالهم، وسلب خيراتهم، كما صرّح الكاتب الصحافي البريطاني روبرت فيسك في مقالة له يحذر المسلمين من تصديق وعود الغرب، وأقواله؛ لأن هذا الغرب غادر يقتل، ويدمر، وينهب الخيرات.

وتحدث المؤلف عن التنصير، وعلاقة المنصرين في الدوائر الاستعمارية، وقد لفت انتباهي أن المندوب الأمريكي في الخليج يكاد يأمر حكام المنطقة بالسماح للمنصرين بالتجول بحرية، كما أن المنصرين وقفوا إلى جانب حكوماتهم في الحرب العالمية الأولى والثانية، وسعوا لفرض ولاء حكام الخليج لدول الحلف ضد

(1) في لقاء مع أحد الأمريكان الذين قبلوا الإسلام، وكان له صلة قريبة برجال الدين النصارى سأله الشيخ جبران القرني قائلًا: نحن نقرأ قوله تعالى: (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم)، فكيف هذا؟ فقال روبرت كرين -الذي كان مستشارًا للرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون-: إن هذا صحيح، وقد ناقش روبرت مع عدد من رجال الدين، فاعترفوا بمعرفتهم بأن الإسلام حق.

دول المحور، وقد كان كثير من المنصرين على علاقات وثيقة بعدد من الحكام، كما أنــه ثبت ارتباط كثير مــن المنصرين بالحكومات الغربية؛ حيــث عملوا مستشارين لهذه الحكومات.

وتناول العداء في الغرب للإسلام في مجال يجهله كثير من الباحثين، وهو مجال العلــوم الاجتماعية، وبخاصة إنشاء علم اسمه علم الإنسان (الإنثروبولوجي) الذي استخدم استخدامًا كثيفًا في الهيمنة على الشعوب الإسلامية.

وفي تقــويم عام للكتــاب يقول المحكّــم أو الفاحصــ للترجمــة: «والكتاب موثق بالمصــادر التــي استقــى منهــا المعلومــات، وكتب حســب المنهج العلمــي في مراعاة الفصول، وكتابة الفقرات، والتزام الفواصل».

والكتــاب يتمتع بالأصالة في التناول، والعمــق في المادة والتحليل، كما يتوافر فيه مــادة غزيرة، ومعلومــات وفيرة، وتحليلات علميّــة رائعة، بالإضافــة إلى ذلك كله ففيــه ربط محكم بين الأحــداث وغاياتها، وبين التصرفــات الصادرة من الجهات المعاديــة للإســلام في الغــرب والسياســات التي تحمي تلــك التصرفــات، وتضفي عليهــا غطاء التواصــل والتعايش مع العــالم الإسلامي، والحــال أن الغايات المبيتة هي محاربة الإسلام، وإخراجه من عقول الناس وأفكارهم، وإني لأخال المؤلف من أولئــك المفكريــن القلائل الذيــن فهموا الجــذور الفكريّــة والاستيراتيجية للعلاقة المكفهــرة بــين العــالم الإسلامــي والغــرب، والتــي تشهــد يومًا بعــد يــوم اشتعالًا وترديًــا نتيجة المواقف العدائية المعلنة للإسلام والمسلمين في مراكز صنع القرارات في عالم الغرب.

ونظرًا لأن الكتاب قد صدر عام ١٤١٠هـ (١٩٩٠)، فإن عداوة الغرب استمرت، وظهــرت بشــكل أكثر وضوحًــا، فمن زلة لســان –أو كما أسموهــا– بوش حين ذكر كلمــة صليبية، وهو وإن كان تعبيــرًا لغويًا عن الجهد المبذول في أي أمر، فإنها كانت صليبية من مبدئها إلى نهايتها يستهدي بمجموعة من المستشارين من رجال الدين النصــارى، فحارب الأب العراق عام ١٩٩٠، وجــاء ابنه ليشنها حملة لا هوادة فيها



على العراق وأفغانستان عام ٢٠٠٣، وظلت الجيوش الأمريكية تستخدم كل ما لديها من قوة، ومن أسلحة فتاكة في بلاد المسلمين تقتل، وتدمر، وتسفك الدماء، وترمل النساء وتيتم الأطفال.

وأقامت أمريكا سجونًا في البلاد المحتلة كسجن أبي غريب، واعتقلت المئات من شباب المسلمين في غوانتمو الذي يقع خارج الأراضي الأمريكية حتى يتهرب الأمريكان من إعطاء المساجين الحقوق الأساسية المنصوص عليها في القوانين الأمريكية، أو حتى في المعاهدات الدولية.

وفي مسألة التهديد الإسلامي للغرب كتب الدكتور باسل حسين يقول: «إن هستيريا معاداة الإسلام المتزايدة في الغرب، هي هستريا ناتجة من تبني رؤى مغالطة تعكس، سوء فهم أو منهجية قائمة على أسس غير علمية، وأخرى مقصودة تنم عن نظرة مريضة تجاه الإسلام، وما لم يتم تبني رؤية موضوعية تشكل بمجلمها غالبية السلوك الغربي تجاه الإسلام والمسلمين، فان الغرب سيبقى أسير الخوف المرضي لما يسمى بالتهديد القادم من الجنوب، وتحديدًا العالم الإسلامي»[1]، ويقول باحث آخر عن هذا العداء: «ارتفعت وتيرة عداء العالم الغربي للإسلام والمسلمين في السنوات القليلة الماضية، ولا يزال ذلك ملموسًا حتى الآن، رغم انطلاق مشروع ما أسموه: «حوار الأديان»، أو الثقافات. دونما نتيجة تذكر، هذا العداء والكراهية أدخلا العالم بأسره في دوامة لا أول لها ولا آخر، ومتاهات كثيرة ومختلفة كانت لها إسقاطاتها على الأمة الإسلامية كاملة...»[2].

ومظاهر العداء منذ ظهور الكتاب قد تعددت وكثرت؛ ونظرًا لكثرتها فسأكتفي

(١) باسل حسين: «الغرب وخرافة التهديد الإسلامي» في http://alarabnews.com/alshaab/GIF/10-01-2003/a3.htm يوم الأربعاء ٣٠ مايو ٢٠١٢ الساعة السابعة صباحًا.

(٢) إبراهيم أبو جابر: «عداء الغرب للإسلام والمسلمين (أسبابه ونتائجه)»، في ٢٠١٠/٨/٢٢١ http://ar.qawim.net/index.php?option=com_content&task=view&id=7359&Itemid=1291

بمثالين أو ثلاثة: فهذا رسام الكاريكاتير الدنماركي الذي وضع رسومًا كاريكاتورية لسيدنا رسول الله ﷺ، وقامت الدنيا ولم تقعد في العالم الإسلامي من مظاهرات، وكتابات، ومواقع للدفاع عن رسول الله ﷺ إلى وفود حلّت بالدنمرك، وغيرها من البلاد الأوروبية مطالبة الرسّام بالاعتذار أو الصحيفة التي ظهرت فيها الرسومات، وقد باءت الجهود بالفشل، وليس هذا فحسب، بل إنني قمت بتمرين أعتقد أنه غريب نوعًا ما حيث بحثت في قوقل (محرك البحث الأشهر) عن المؤيدين والمساندين لرسام الكاريكاتور الدنماركي، فوجدت أن الأمر ليس قليلًا حيث بلغ عدد الصفحات في الأمر أربعة عشر مليونا ومائة ألف، وصحيح أنها ليست كلها في تأييده، ولكن نسبة كبيرة منها ترى أن المسألة مسألة حرية فكرية، فبينما تحرم أوروبا وأمريكا من يطعن أويشكك في حقيقة المحرقة اليهودية أو الهولوكوست، فإنها تعطي الرسام الدنمركي وغيره الحق في تشويه صورة من يبغون.

أما المثال الثاني: فهي تصريحات بابا الفاتيكان حول الإسلام في محاضرته التي ألقاها في ألمانيا، ونسب للإسلام أمورًا هو بريء منها، وعلى الرغم من كل الضجة، فلم يتراجع البابا، ولم يعتذر حتى إن أحد القساوسة أعلن إنه سيحرق نسخة القرآن الكريم.

وحول عداوتهم سأكتفي بآية واحدة، وهي قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران: ١١٨) التي يقول القرطبي في تفسيرها: «يعني ظهرت العداوة والتكذيب لكم من أفواههم، والبغضاء: البغض، وهو ضد الحب ... وخص تعالى الأفواه بالذكر دون الألسنة إشارة إلى تشدقهم وثرثرتهم في أقوالهم هذه، فهم فوق المتستر الذي تبدو البغضاء في عينيه، وتتمة الآية: (وما تخفي صدورهم أكبر) يقول القرطبي: أن معناها: «إخبار وإعلام بأنهم يبطنون من البغضاء أكثر مما يظهرون بأفواههم».

ومن العداوات التي لم يفردها المؤلف بحديث مفصل، وهو ما فعله الاحتلال في بلادنا في مجال العلم والتعليم، وأقدم نموذجًا مما حدث في مصر؛ فلما تولى اللورد كرومر منصب أول حاكم عام لمصر (١٨٩٣-١٩٠٧)، وكان مسؤولًا عن حكم

مصـر مـدة تصل إلى أربع عشـرة سنة، وكان رأيـه كما جاء في كتابـه الذي نشره بعد مغادرته مصر (مصر الحديثة): «إن الخلاف الشديد بين المسلمين والمستعمر الغربي في العقائد، وفي القيم، وفي التقاليد، وفي اللغة، وفي الفن، وفي الموسيقى...»، ولا بـد من التغلب على هذا الخلاف، وثمة طريقان في رأيه: أحدهما هو تربية جيل مـن المصريـين العصريين الذيـن ينشؤون تنشئـة خاصة تقربهم مـن الأوروبيين، ومـن الانجليـز على وجه الخصوصـ في طرائق السلوك والتفكـير، ومن أجل ذلك أنشـأ كرومر كلية فيكتوريا التي قصد بهـا تربية جيل من أبناء الحكام، والزعماء، والوجهـاء في محيط إنجليزي؛ ليكونوا من بعد هم أدوات المستعمر الغربي في إدارة شـؤون المسلمين، وليكونوا في الوقت نفسه علـى مضي الوقت أدواته في التقريب بين المسلمـين وبين المستعمر الأوروبـي، وفي نشر الحضارة الغربيـة. «وقد حدثني أحد الذيـن درسوا في هـذه المدرسة أنهم كان محرما عليهم التحـدث باللغة العربية في المدرسـة، ويعاقب من يضبط متلبسًا بالحديـث باللغة العربية، أما الصلاة والدين فلم يكن لهما مكانًا في هذه المدرسة».

وكان التعليـم في عهد كرومر قد أنيط بالقسيس دنلوب الذي يقول عنه محمود شاكر: «فأسند التعليم إلى قسّيس مبشر عاتٍ خبيث هو: «دنلوب»ويضيف: «وجاء الاستشـراق الإنجليـزي؛ ليحـدث في ثقافة الأمـة المصرية صدعـا متفاقمًا أخبث وأعتى من الصدع الذي أحدثه الاستشراق الفرنسي»، وهذا الصدع هو ربط ثقافة المصريين بالفرعونية.

ومـع التعليم والسيطرة عليه داخليًـا، فقد ابتدع الغربيون مسألة الابتعاث، فلمّا غـادر نابليون مصر بعـث إلى نائبه في مصر أن يبعث إليـه ٥٠٠ أو ٦٠٠ شيخًا من المماليـك، والهدف من هذه البعثـة، كما يقول محمود شاكـر في كتابه: «رسالة في الطريـق إلى ثقافتنا»نقـلًا عـن رسالة نابليون: «فـإذا ما وصل هـؤلاء إلى فرنسا يحجـزون مـدة سنة أو سنتـين يشاهـدون في أثنائها عظمـة الأمـة (الفرنسية)،

ويعتــادون على تقاليدنـــا ولغتنــا، ولما يعودون إلى مصر يكـون لنا منهم حـزب يضم إلى غيرهـم»، وقد كتب محمد المنوني في كتابه: «يقظة المغرب العربي» أن المشرف الفرنسـي على إحدى البعثات الطلابية المغربية طلب أن يبقى الطلاب المغاربة مدة أطول في فرنسا بعد انتهاء بعثتهم؛ ليتشبعوا بعظمة فرنسا وحضارتها.

ونواصل مع محمود شاكر في حديثه عن محمد علي سرششمة أنه بعد أن استقر في الحكـم «وازداد إطبـاق «القناصل»، و«المستشرقين» على عقلـه وقلبه، وخاصة الفرنسيين منهم، وكان من تخطيط هؤلاء الاستيلاء على عقول بعض شباب البلاد من خلال الابتعاث إلى أوروبا بعامة وفرنسا بخاصة، ويقول محمود شاكر: «وسنحت لجومـار (أحد المستشرقين) أعظم فرصة باستجابة محمد علي لإرسال بعثات إلى أوروبه، فبنى مشروعه... على شباب غض يبقون في فرنسا سنوات تطول أو تقصر يكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسا وتقاليدها، فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزبـا لفرنسا، وعلى مر الأيام يكبرون، ويتولون المناصب صغيرها وكبيرها، ويكون أثرهم أشد تأثيرًا في بناء جماهير كثيرة تبث الأفكار التي يتلقونها في صميم شعب دار الإسلام في مصر».

وكأن مسلسل الابتعاث لم ينته حتى اليوم، فكلما خبت جذوة الابتعاث عادت من جديـد؛ ليتمكنوا من صنع نفر من أبنائنا على أعينهم؛ ليعودوا إلى بلادنا، فينفذوا الأجندات الغربية.

لئن حاول مؤلف الكتاب أن يقدم لنا ببحث علمي رصين عداوة الغرب للإسلام والمسلمـين منــذ أن ظهـر الإسلام، فما العمـل لمواجهة هــذا العداء؟ وهنــا أتذكر مقولـة عمـر بن الخطاب رضي الله عنــه: (نحن قوم أعزنــا الله بالإسلام، فمهما ابتغينــا العــزة في غيره أذلنــا الله)، فحين نطلب العــزة فأمامنا مــا نتمسك به ما ذكـره الرسـول ﷺ: «تركتكم علــى المحجة البيضــاء ليلها كنهارهــا لا يزيغ عنها إلا هالـك»، فالسبيـل إلى وقف عداوة الغرب لنا هو أن نعـود أقوياء ينتشر في ربوع

بلادنا السلام والعدل الحقيقيين، فأي أمة تفتقد العدل لا يمكنها أن تواجه غيرها، ومما يعجبني وصف أحد جند الروم حين دخل معسكر المسلمين يتجسس عليهم فقال: «رهبان بالليل، فرسان بالنهار، يتساوون فيما بينهم لو سرق فيهم ابن قائدهم لأقاموا عليه الحد، وأضاف إنهم أحرص على الموت من حرص الروم على الحياة».

مقدمة المؤلف

الغرب والإسلام

غالبًا ما يتهم الغرب بأنه معاد للإسلام وللعالم الإسلامي، هذا هو الشعور العام في أي بلد مسلم، وتهدف هذه الدراسة إلى البحث في مدى صحة هذه الفكرة، أو هل هي من صنع الخيال؟ لقد أدى الوجود العربي في أسبانيا، والوجود التركي (العثماني) في أوروبا الشرقية إلى معارك على الأراضي الأوروبية، كما أن تجربة الحروب الصليبية في العصور الوسطى تركت ندوبًا في النفسية الغربية، وكذلك فعل الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية من شمال أفريقيا إلى الشرق الأوسط، فشرق آسيا وجنوبها في إثارة العداوات مع الإسلام، والشعوب الإسلامية، وثقافاتها، وحضارتها، ومرة أخرى فإن التفاعل المعاصر بين الغرب والقوى الإسلامية في الدول الإسلامية بسبب ما يطلق عليه بالصحوة الإسلامية قد زادت المخاوف من الإسلام، وعلى ذلك فإنّه من الضروري على ضوء المعطيات التاريخية، والسياسات الدولية المعاصرة أن نسعى إلى معرفة إذا ما كان لدى الغرب عداء تقليدي للإسلام.

يعرف الجميع في الغرب معنى معاداة السامية (Anti-Semitism) بأنه معاداة فئة من الناس؛ لأنهم يدينون باليهودية، وكذلك العنصرية (Racism) بأنه معاداة فئة من الناس بسبب لون بشرتهم، لقد ظهرت فكرة العنصرية بسبب الاستعمار بينما تعود معاداة السامية التي انبعثت من الغرب لعدة أسباب: أحد هذه الأسباب اقتصادي؛ حيث نظر إلى اليهود بأنهم مقرضو المال، القساة القلوب، وكذلك الكراهية التي تسبب فيها العداء الاجتماعي الاقتصادي بين النصارى واليهود، وكان لهذه النزعة سبب إسلامي حيث قدّمت الدراسة التي قام به كتلرز (Cutlers) بعنوان: «اليهودي بصفته حليف للمسلمين» برهانًا مقنعًا بأن جذور العداء السامية في العصور الوسطى يعود إلى فهم النصارى بأن اليهود كانوا حلفاء القوة الإسلامية في أوربا، وفي هذه الأيام حيث تذوي اللاسامية (بافتراض أن

اليهـود أصبحوا أعداء للمسلمين بسبب الصــراع في فلسطين)، ويبدو على أي حال أن العداء للإسلام يزداد، ولدينا مقولتان تم اختيارهما عشوائيًا إحداهما ليهودي فرنسي، والأخرى لأحد المؤيدين لحزب المحافظين، وتعكسان هذا التفكير: فقد قال نائب رئيس لجنة اليهود الفرنسيين: «ليس في فرنسا مشكلة عنصرية، وأن المشكلة تجد طرقًا للاستمرار بظهور الإسلام»، (جريدة الجارديان الإنجليزية، ٢٦ أبريل ١٩٨٨م). وقــال الوزيــر المنتمــي لحــزب المحافظين: «يجــب إعادة فتــح بريطانيا للإنجليــز، ويجب طــرد المسلمين إلى ديارهم إذا كانــوا لا يستطيعون أن يعيشوا في بلــد يسمح فيه لسلمان رشدي بحرية التعبير عــن آرائه»، (جريدة الجارديان، ٢٩ أغسطس ١٩٨٨م). هاتان المقولتان تظهران خوفًا غير معقول من المسلمين، وتعكس الخوف من التقليد المعادي للإسلام.

ومــن أجل الكشــف عن جذور هذا التقليد المعادي للإســلام تضع هذه الدراسة أمامها هدفًا ذا ثلاثة فروع:

أولًا: أن تحــدد اتجاه التقليد المعادي للإسلام من حيث ظهوره عبر العصور، أو عند ظهوره حديثًا.

ثانيًــا: تحديــد الأشــكال التــي عبّر فيها هــذا الاتجاه عــن نفســه، والتي يمكن تحديدها بأنها كانت دينية، ثم تفرعت فيما بعد إلى اتجاهات سياسية وعلمانية.

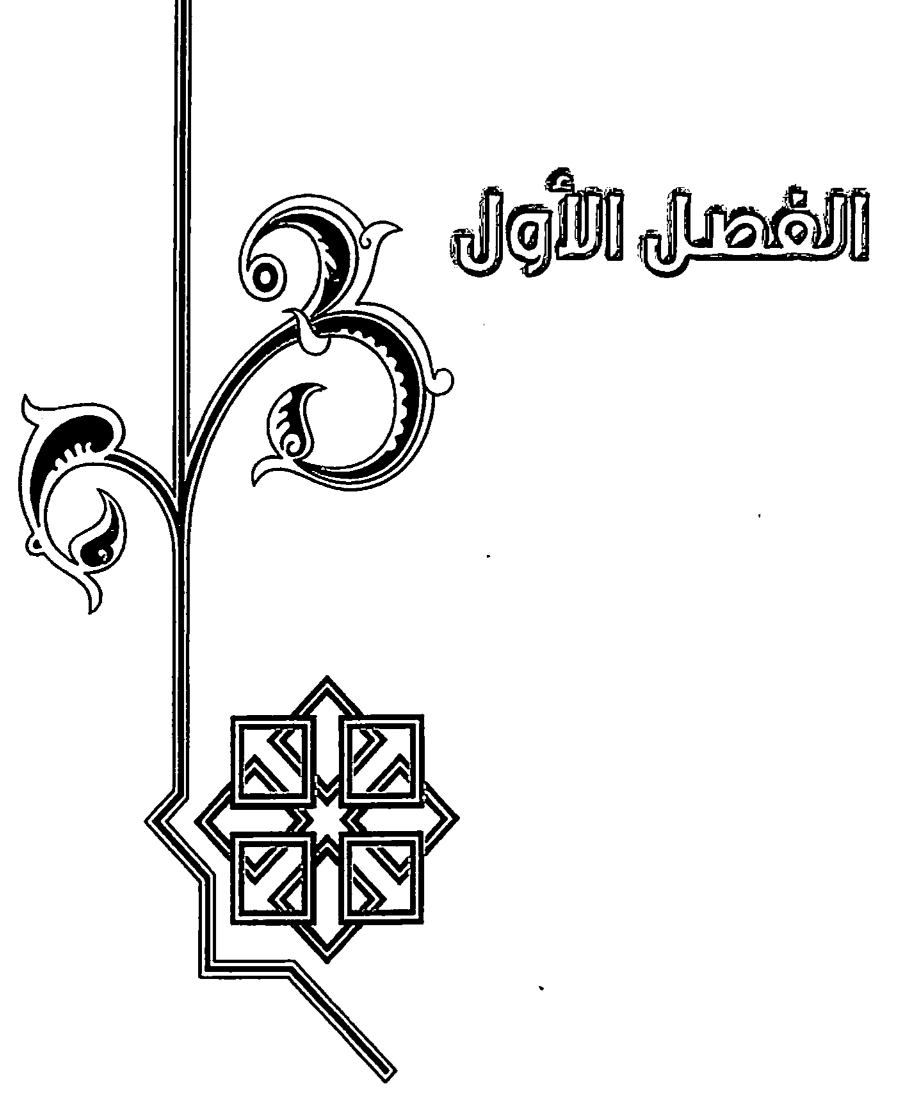
ثالثًا: تسعى هذه الدراسة لشرح طبيعة محتوى تلك الأشكال، ويجب على الباحث هنــا أن يكون اختياريًا بسبب قيود الدراسة، ومن هــذه القيود صعوبة متابعة العدد الكبــير من الكتّــاب النصارى الذين تناولوا الإســلام في العصور الوسطى، وكذلك ظهور عدد كبير مــن المستشرقين، أو المختصين في الشرق الأوسط، كذلك من هذه القيــود صعوبة تناول كل ما كتبــوا بصورة شمولية؛ لذلك سننحي هذه الدراسة إلى تنــاول نمــاذج من هــذه الكتابات نراها كافيــة في هذا الاستعراضــ؛ لتكون مقدمة للتقليد المعادي للإسلام الذي يؤلف الأساس لفهم الغرب للإسلام.

ومعلــوم أن السياسة الدوليــة اليوم ترى أن الإسلام يقف عائقًا في سبيل تحقيق

المصالح الغربية المتمثلة في الاستغلال السياسي والاقتصادي للعالم الإسلامي، ولا تقصد هذه الدراسة إلى توجيه الاتهام، أو إلقاء المسئولية، ولكن هدفها هو طرح مجموعة من الحقائق تُبرز فهم الغرب للإسلام متمثلًا في أشكال عدة حتى اليوم، وإن أراد الغرب أن يفهم الأمر على غير صورته، فإن القرار والمسئولية تقعان على عاتقه وحده. إن العيش في مجتمع يتميز بالكِبْر العنصري، أو خداع النفس لا يمكن إلا أن يُشوّه فهمَ الإنسان للحقائق الاجتماعية والسياسية. إن الكراهية وردود الفعل العاطفية تمنع دائمًا التفكير الواضح، وشبيه بهذا فإن الاهتمام بالمصالح الذاتية التي تظهر عدم المبالاة بشعور الآخرين يمكن أن يكون فضيلة في الغرب، ولكنه يُعَدُّ عيبًا في العالم الإسلامي، وفي عالم لم يستطع الغرب فيه السيطرة على الإسلام - ولن يقدر على ذلك -، فإن الحكمة تفرض على الغرب أن يحاول التعايش معه، ويعني هذا التعايش محاولة الفهم والاحترام المتبادل من أجل العيش سويًا، ولكن قبل إبداء الرأي في هذه المحاولة لابد أولًا من فهم الإسلام، والشعوب الإسلامية، والعالم الإسلامي.

إن هذه الدراسة تحاول أن توفر الحقائق التي تعكس التعصب، والكره، والعداء المستبطن في التفكير المعادي للإسلام في الغرب، ومن المؤمل أن تضع القواعد للباحثين في فهم الإسلام، وتوعيتهم بالأخطار المشحونة في التقليد المعادي للإسلام، ففي عالم مليء بالمعتقدات المختلفة التي تتعايش معًا من الضروري الفهم المتبادل لآراء الآخرين كما هي.

الفصل الأول



النصرانية والصليبيون

أصبحت جذور النصرانية راسخة لمدة تزيد على ستمائة سنة في الشرق الأوسط، وهي المنطقة التي بدأت فيها، وبعد ذلك وفجأة ظهر دين جديد هو الإسلام نزل على النبي محمد ﷺ في آفاق الجزيرة العربية، وانتشر بسرعة ليس فقط في الشرق الأوسط، بل وصل إلى أبعد نقطة في حدودها، مؤكدًا أنه جاء لإتمام الرسالات التي جاء بها الرسل والأنبياء السابقون، وأساسًا دين أهل الكتاب (النصرانية واليهودية)، وهنا شعرت النصرانية لأول مرة بأنها مهددة في عقر دارها، وكان أمام النصرانية ثلاثة خيارات:

أولها: أنه كان بإمكانها الترحيب بالإسلام؛ لأنه في النهاية يؤمن بالله نفسه، وكل أنبياء أهل الكتاب، كان بإمكانها أن تتعلم التعايش مع الإسلام، ولكن هذا لم يحدث تاريخيًا.

وثانيها: كان الخطر من الخيار الأول أنهم لو قبلوا الإسلام بصفته دين من الإله نفسه، فحينئذ يكون الله عز وجل قد أنزل إلى رسول آخر، وأن الرسالة الخاتمة هي الإسلام الذي جاء لإكمال الرسالات السابقة التي نزلت على أهل الكتاب، وهذا الاحتمال -يعني: أنهم سيصبحون مسلمين-، وهذا الاحتمال هدد قوة القساوسة، ومؤسسة الكنيسة، وبالتالي لم يجد أي اهتمام.

وكان الاحتمال الثالث أو الخيار الثالث الذي بدأ جذابًا للنصارى هو تكذيب هذا الدين، ومحقه من الشرط الأوسط إن كان ذلك ممكنًا.

إن الإسلام من خلال اعترافه بالنصرانية قد فرض على المسلمين أن يظهروا تقديسهم لعيسى عليه السلام، وأن يتعايشوا مع النصرانية، فليس في الإسلام إكراه الناس على اعتناقه، ولكن من خلال الاقتناع فقط، ولذلك عامل المسلمون النصارى بكرم في أثناء انتشار الإسلام في بلادهم، وكان اعتراف النصرانية بالإسلام معناه تقويض مكانتها، وقد أدركت النصرانية في ذلك الوقت أن بقاءها يلزمه تنازل الإسلام، وهكذا كان الحجر الأول قد ألقاه النصارى على الإسلام.

لم تكـن كتابات النصارى المتعصبة مبنية على دراسة نزيهة للإسلام، بل كانت مبنيـة على افتراضات وأفكار متكونة سلفًـا، وتحيزات، وغالبًا أكاذيب، فلم يدرس علمـاء النصارى الإسلام علـى أنه كيان مستقل، بل درسوه وفقًـا لما يجب أن يكون وفقًـا لوجهة النظر النصرانية، وهذه الكتابات هي التي وضعت القاعدة للفهم غير العقلاني للإسلام.

ولا يمكـن التقليل من شأن نتائج هذا الموقف حيث أصبح الغرب في موقف معاد للإسـلام إلى الأبـد، وخلافًا للإسلام لم تعـد النصرانية هي الديـن الرئيسي في الشـرق الأوسط حيـث ظهرت، ولكنها أنشأت مراكزهـا في الغرب، ومن ثم حرَّكت الغـرب لمحاربـة الإسلام حربًـا دينية، وبهذا العمـل وضعت حدًّا لفهـم متفتح واع للإسلام.

وظهـرت بعد موت المسيح طبقة القساوسة التي سعـت إلى الإبقاء على مكانتها المكتسبـة، وبهـذا جاءت المؤسساتيـة في النصرانيـة، وأصبح البابـا في روما أعلى مرتبـة في طبقة القساوسة الكاثوليك بينمـا كان للبروتستانت طبقاتهم الكهنوتية، ومراكزهـم في الدول الأوروبيـة، وكان موقف كل من الكاثوليـك والبروتستانت من الإسـلام واحد، فهو يهدد المكانة الحالية التي وصلـت إليها طبقات القساوسة، فلو آمنـوا بالإسلام، فستصبح وظائفهـم في خطر؛ لذلك كانت المحاولة لفهم ما يقوله الإسلام أمرًا لا يهمهم، وقد أصبح لطبقة القساوسة في الغرب على مر التاريخ سلطة ضخمـة، فقد سيطرت الكنيسة على الدولة حتى بلـغ من قوة الكنيسة أن الباباوات المتتابعـين حينما نـادوا بشن الحرب علـى الإسلام كان على الملـوك أن يستجيبوا، وأن يتقدمـوا بجيوشهم ضد المسلمـين، وعلى مر التاريخ كانت حـروب النصرانية ضـد الإسلام، والشعوب الإسلاميـة مستمرة، وفيما يأتي بعضـ الفقرات المختارة مـن هذا التاريـخ. وسيكون التركيز في هذا الفصل على أولئـك الناس الذين كانت نظرتهـم للإسلام والمسلمين هـي المؤثرة والمحددة لموقف النصـارى، وعلى القرّاء الذيـن يرغبون في زيـادة الاطلاع أن يعـودوا إلى كتابات يوحنـا الدمشقي (٦٧٥-٧٤٩)، وبيتر المقدس (١٠٩٤-١١٥٦)، ومارتن لوثر (١٤٨٣-١٤٥٦).

أما يوحنا الدمشقي كما يوحي اسمه وُلِدَ في دمشق حيث كان والده يحتل منصبًا رفيعًا في قصر الخليفة الأموي، وحتى يوحنا نفسه خدم في القصر في الجزء الأول من حياته، ثم أصبح راهبًا فيما بعد وكرّس حياته قسًّا على يد بطريق القدس، والتحق بدير القديس سباس قريبًا من القدس.

تناول يوحنا في كتابه (De Haerebius) الإسلام حتى عده النصارى أول مرجع في هذا الدين، حتى أصبح السبيل الذي اختطه هو: «المورد لكل الكتابات الجدلية ضد الإسلام في المستقبل»[1]، وفي هذا الكتاب تمسك يوحنا بفكرة أن القرآن الكريم من وضع محمد ﷺ، وأنه ليس منزّلًا، وحاول تكذيب النبي ﷺ بنشر إشاعات كاذبة بأن راهبًا نصرانيًّا هو بحيرا قد ساعده في وضع القرآن، وقد اعتقد يوحنا أن محمدًا أصبح عارفًا بالعهد القديم، والعهد الجديد على أرجح الأقوال من خلال علاقته براهب عربي، وعندما تظاهر بالطيبة استطاع أن يكسب قومه، فقد أعلن أنه أُنزِلَ إليه كتاب مقدس من السماء، وعندما كتب في كتابه بعض الأشياء التي تستحق السخرية قدمه لهم على أنه شيء ينبغي تقديسه[2]. وأيّد يوحنا الأكاذيب التي كتبها الكُتّاب البيزنطيون الآخرون بأن النبي ﷺ كان يعاني من الصرع[3]، كما أنّه عاب شخصية الرسول ﷺ؛ «لأنه نسب إلى الوحي الإلهي ما يبرر سلوكه الجنسي»[4]، وكان هدفه تصوير الإسلام بأنه دين يسمح بتعدد الزوجات، والجواري، والانغماس الجنسي، ومن أجل أن يؤيد قناعته حكى يوحنا رواية مزيفة كيف أجبر النبي ﷺ زيدًا على تطليق زوجته وتزوجها هو نفسه، وقد أطلق يوحنا على العرب كلمة السراسنة المأخوذة من اسم يهودي[5]، وقد أصبحت

(1) J.W.Voorhis, «John of Damascus on the Muslim Heresy,» in the Moslem World, vol. xxiv. No. 4 (October 1934),P.391.

(2) Ibid.p.392.

(3) Daniel Sabas, John of Damaskus on Islam: Leiden: E.J. Brill, 1972, pp.74-75.

(4) N.Daniel, Islam and the West. Edinburhg: University of Edinburgh press, 1966, p.4..

(5) J.W.Voorhis, Op.Cit. p.392.



كلمة السراسنة الاسم الشائع الذي يطلق على العرب في الكتابات المبكرة في الغرب حول الإسلام.

وهكذا أصبحت كتابات يوحنا الدمشقي وأمثاله مصدرًا لأية محاولة للكتابة عن الإسلام مباشــرة، وظل النصارى لعدة قرون يظهرون صورة من الجهل كمن وضع في سجــن محكم الإغــلاق لا يسمح فيه إلا للإشاعات عمــا يحدث خارجه، ويحاول هــذا السجين أن يكوّن صــورة لما يسمع بمساعدة أفكاره السابقــة، وقد كان الكتّاب الغربيــون قبل سنــة ١١٠٠م، في مثل هذه الحالــة بالنسبة للإســلام حيث إنهم لم يعرفوا شيئًا عن الإسلام بصفته دينًا[١]، وعلى العكس فقد أصبحت كتابهم المقدس مصــدرًا لدراســة الإســلام، فمنذ ٧٠٠ وحتــى ١١٠٠ بعد الميــلاد استخدم الكتاب المقدســ لاكتشاف الأصــل البعيــد للسراسنة في تاريــخ العهد القــديم[٢]، واستمر الكتــاب المقدس هــو الأداة الفكرية الوحيدة الفعالة لأوائــل القرون الوسطى، ولكن البحث في الكتب المقدسة لم يكن في النهاية عونًا كبيرًا في شرح ظاهرة الإسلام[٣]، ومع ذلك فلم يمض وقت طويل حتى بدا العالم الغربي يحتك بالإسلام مباشرة.

وكانت هجمات القساوســة النصارى بعد يوحنا الدمشقي متوقعة حيث تركزت علــى عدد مــن الموضوعات الأثــيرة لديهم، ومن بــين هذه الموضوعــات حياة النبي ﷺ، والقــرآن الكريم، وجوانب عدة من الإسلام، وكان أشد هؤلاء عُنفًا وقسوة في هجومــه على الإسلام رجل فرنسي هو بيير موريســ دي مونتبوازيه (Pierre Miu-rice de Montboissier) الــذي دعاه ملك أسبانيا إلى بلاده، وأصبح يعرف هناك بـــ: بيتر المقدســ (Peter the Venerable) (١٠٨٤م – ١١٥٦م)، وكان قسًّا كرّس نفســه لدراسة الإسلام، جاعلًا همه الأساس تكذيب الإسلام، وقد فعل ذلك بطرق عديــدة، ومن ذلك أنــه هاجم النبي ﷺ حيث عــدّه شخصًا ماكرًا جــدًا، ومغرمًا بالقــوة، واستطاع تحقيق أهدافه من خلال السرقــة، والغزو، والحيلة، والقتل، ولم

(1) R.W.Southern, Western Wiews of Islam in the Middle Ages. Cambridge, Mass: Harvard University press, 1980, p.14.

(2) Ibid,p.15.

(3) Ibid,p.15.





يكن محمدًا ﷺ في نظر بيتر هذا نبيًا ولا رسولًا، ولكنه كان مضلًا، ورجلًا شريرًا، وتابعًا للشيطان[1].

ولم يعتقد بيتر بأن القرآن كتاب منزّل، بل كتبه محمد بالتعاون مع راهب مهرطق (مبتدع)، وأن النبي «أوجد قرآنه ونسخه في ذلك الشكل البربري الخاص به: أنه كتاب شيطاني»[2]، وقام بنقل ترجمة بيتر للقرآن رجل إنجليزي من مدينة رثلاند في ليستر شاير اسمه روبرت الكيتوني (Robert of Ketton)، وبالطبع فقد كان عملًا غير دقيق لدرجة أنه احتوى على تسع فصول إضافية[3]، ووزعت نسخ من هذه الترجمة في كل المكتبات الأوروبية[4]، وفي الحقيقة فإن بيتر استخدم روبرت الكيتوني مع آخرين لإعداد ترجمات وثائق محمدية أساسية وكانت النتيجة مجموعة من الوثائق لفهم الإسلام التي حافظت على قيمتها حتى القرن السادس عشر.

وتكونت هذه المجموعة من ترجمة للقرآن، ومختصر لتاريخ العالم من وجهة النظر الإسلامية، ومجموعة من الأساطير الإسلامية حول الخلافة، وعرض لبعض الموضوعات في تعليم محمد ﷺ عرفت بمحاورات الجزيرة العربية، وظهرت كتابات في زمن مبكر عرفت باعتذاريات الكندي[5].

وكان سوذرن (Southern) على صواب عندما كتب بأن الوضع قد تغير خلال القرن، وبخاصة بعد الحملة الصليبية الأولى، فإن الروايات الشائعة لحياة محمد، ولمبادئ دينه التي أصبحت شائعة لدى الكتّاب النصارى منذ الحملة الصليبية

(1) James Kritzeck, Peter the Venerable and Islam Princeton: Princeton University Press, 1964, p.145.
(2) Ibid,p.94.
(3) Ibid,p.94.
(4) H.Darman, Towards Understanding Islam. New York: Columbia University Press, 1948, p.33.
(5) R.W. Southern, the Making of the Middle Ages, London: Century Hutchimson, 1988, p.40.



الأولى كان من الطبيعي أن تكون غير مهذبة أو مفيدة، ولكن في الوقت نفسه ظهرت آثار لبعض المحاولات الجادة لفهم العقيدة المعادية، وكان هذا جهدًا هائلًا، ولم يكن وجود كثير من تعاليم محمد ﷺ المعروفة لدى النصارى؛ ليجعل الأمر أكثر سهولة مثل – آراء مألوفة حول الله، ونصائح معروفة، وأسماء مألوفة لأنبياء، وحكام في العهد القديم –، وكان شكلًا غريبًا جدًا، ومحيرًا جدًا، ومتنافرًا أن يمنع البحث والاستقصاء، وكانت هناك طريقة واحدة لتناول هذا الاضطراب (كما كان من المفروض أن تبدو) في مسألة الحق والزيف، ولكم أن تتصوروا كيف يمكن لمفكر في القرن الثاني عشر مطلوب منه إيجاد حل بالأدوات المتوفرة له؟! حيث كان يجب أن تعالج على أنها هرطقة، وأكثر غموضًا من أي هرطقة أخرى وجدت على مدى التاريخ النصراني، ولكنها كمثل تلك الهرطقات، فهي أكثر أو أقل إفسادًا متعمدًا للإيمان الصحيح، والذي استلزم التنفيذ باستخدام قواعد الجدل العادية[1]، وفي كل ذلك فقد كان مقدار البحث الذي يخضع للحقد الملتهب الذي قاد؛ لتشويه الحقائق، فأمر لا يمكن لأحد تقديره.

وانضم لبيتر منصر آخر، وإن كان متأخرًا عنه زمنيًا، وهو دومينكاني من بغداد اسمه ريكولدو من مونتر كروس (Ricoldo of Montercroce) (١٢٤٣م –١٣٢٠م) الذي أكد بدوره فكرة أن القرآن ما هو إلا من عمل الشيطان يهدف إلى تكذيب الكتاب المقدس، وعد كتابه المسمى: (Confutation Alcorani) أعلى مستوى تم التوصل إليه في معرفة الإسلام كدين في الوقت الذي كُتب فيه، ولم يحل محله أي كتاب لعدة قرون[2].

واعتقد ريكولدو أنه مادام الكتاب المقدس لم يشهد للقرآن، فلا يمكن للقرآن أن يكون من الله، بالإضافة إلى ذلك فقد اعتقد أن أسلوب القرآن الأدبي كان أقل من مستوى الله، وأن محتوياته عانت من التناقضات الداخلية، وخالفت الإنجيل، ولقد

(1) Ibid,p.39.

(2) J.W. Sweetman, Islam and Christian Theology, London: Luterwoth Press, 1945,p.159.

تسامح مع العنف، كما أن آياته ينقصها الترتيب، ولم تؤكد المعجزات[1].

وبينما كان النصارى يهاجمون الإسلام بهذه الصورة اجتاحت قوة أخرى من أواسط آسيا الأراضي الإسلامية، اكتسحت جحافلهم البلاد الإسلامية من إيران إلى الشرق الأوسط مدمرة الخلافة الإسلامية في بغداد، وقتلت الخليفة، ولاشك بأن النصارى كانوا سعداء بهذه الأحداث، وعقدوا تحالفًا مع المغول الوثنيين لهجوم مشترك على المسلمين، وقد عبّر أحد النصارى، وهو: ريموند لل (Raymond Lull) (١٢٣٥م-١٣١٦م) بوضوح عن هذه النظرة؛ حيث اعتبر بأن التتار «أخذوا قانون محمد إما باختيارهم، أو أن السراسنة أجبروهم على ذلك، وأن النصرانية كلها ستكون في خطر عظيم»[2]، وبالرغم من أن الجهود الكبيرة التي بذلها النصارى؛ لتنصير المغول إلا أن ما حدث بدقة هو أن البابا أنوسنت الرابع أرسل سنة ١٢٤٥م مجموعة من السفراء يرأسهم قسيس فرنسيسكاني هو جين بلافو الكابريني (Jean Plavo de Caprini) إلى منغوليا، ولكن بدون جدوى، وتبع ذلك مناظرات حول النصرانية والإسلام، ولكن مما خيب آمال النصارى أن أسلم السلطان غازان خان (١٢٩٥م-١٣٠٤م).

وهنا اقتنع كثير من النصارى أن الإسلام لا يمكن إلغاؤه بسهولة، ولذلك فمن الضروري دراسة الإسلام دراسة جادة، وهذه لا يمكن إتمامها دون دراسة اللغة العربية، وفي مجمع فينا الذي عقد في سنة ١٣١٢م، أدخلت أهمية دراسة اللغة العربية في السياسة الرسمية للكنيسة الغربية، وسيتم دراسة اللغة العربية في باريس، وأكسفورد، وأفيجنون (Avignon)، وبولونيا، وسلمونكا، وكانت القوة المحركة خلف هذا القرار هو: ريموند لل.

لقد خاف النصارى في زمن يوحنا الدمشقي «سراسنة الجزيرة»، وفي زمن بيتر المقدس كان الخوف من المورسيكيين في أسبانيا، ولكن الخوف الجديد الذي سيطر على عقولهم تمثل في ظهور الأتراك في بلاد النصرانية اللاتينية، فقد كان فتح

(1) Ibid,pp.118-159.

(2) R.W. Southern, Western views of Islam, Op.cit, p.39.



القسطنطينية رمزًا لتدمير النصرانية الشرقية، وتحد للغرب، كما فعل الصليبيون في القرن الحادي عشر، وهذا الذي جعل علماء العقيدة النصارى يشعرون بمرارة أكبر وأكثر إحباطًا؛ لأن مشكلة الإسلام فقط هي التي ظلت التحدي الأساسي الفكري لسلام أوربا النفسي والجسدي»[1]. ولم يكن الكاردينال جون السيجوفي (John of Segovia) (١٤٠٠م-١٤٥٨م) راضيًا عن الترجمة القرآنية التي كتبها بيتر سابقًا، لذلك دعا عربيًا من سالمونيكا لمساعدته في عمل ترجمة أخرى للقرآن، كان جون هذا ناقدًا للمسائل التي أثارها أسلافه ذلك أن شغلوا أنفسهم بمسائل ليست جوهرية، مثل: هل كان نبي الإسلام حقًا نبيًا؟ أما بالنسبة لجون، فإن السؤال الذي كان على النصارى أن يجيبوا عنه هو: هل القرآن كلمة الله أو لا؟ واعتقد جون بأنه مادامت الحرب مسموحًا بها في الإسلام، فقد كان تعبيرًا طبيعيًا للمسلمين، ولكنها لم تكنْ كذلك بالنسبة للنصارى، وبالتالي فإن النصرانية لن تنجح ضد الإسلام من خلال الحروب المتتالية، ويجب على النصرانية أن تتبنى وسائل سلمية، وستكون حينئذ صادقة في السعي نحو أهدافها.

ومن الذين عاصروا جون نيكولاس من كوزا (Nicholas of Causa) الألماني (١٤٠١م-١٤٦٤م) الذي أصبح كاردينالًا سنة ١٤٤٨م، وقد واصل نيكولاس دراسة القرآن الكريم التي بدأها جون، وزعم بأن القرآن كان رواية أخرى للنصرانية النسطورية، وأن المشاعر المعادية للنصرانية أدخلت إليه من قبل بعض المستشارين اليهود للنبي، وبالتالي فإن الإسلام يجب أن يعالج على أنه خلاف بين النصرانية الغربية والنسطورية، ولكن جين جيرمين (١٤٠٠م-١٤٦١م) (Jean Germain)، وهو: قس فرنسي لم يؤيد منطق التاريخ الذي استخدمه معاصروه، وبدلًا من ذلك نادى باندفاعة أقوى ضد الإسلام تنتهي بتدميره، واعتبر أن الخطر الإسلامي يشكل تهديدًا لمستقبل النصرانية، وكانت جهوده منصبة على تحريك حكام الغرب؛ ولذلك نصح شارلز ملك فرنسا وحكام أوربا الآخرين ليحملوا السلاح ضد الأتراك.

(1) Ibid,p.86.

ناقش أرياس سيلفيوس (١٤٠٥م-١٤٦٤م) (Areas silvius) الإيطالي الذي أصبح البابا بيوس الثاني سنة ١٤٥٨م بأن خسارة القسطنطينية للأتراك في عهد محمد الثاني قد جعلت الأتراك أعداء للنصرانية، وكتب يائسًا في ١٤٦٠م إلى السلطان العثماني نفسه مدافعًا عن الغرب بأنه صاحب حضارة متفوقة، وأنه جرب في الحرب، وقد أنذر الأتراك أن لا يشعروا بالثقة الزائدة من انتصارهم، ومن التفكير في غزو أمم أوربا الأخرى، ثم وجه حديثه قائلًا: «إذا كان سلطان الأتراك يريد أن يصبح أعظم، وأقوى رجل، وأكثر رجل شهرة في زمنه، فإن سألت كيف يمكن هذا؟ فالأمر ليس صعبًا، ولم تسأل شيئًا بعيدًا، إنه في العالم كله قليل من الماء يمكن تعميدك به، وأن تتجه إلى المذبح، وأن تؤمن بالكتاب المقدس، افعل هذا، ولن يكون هناك أمير في الدنيا يتفوق عليك في المجد، أو يساويك في القوة، سوف ندعوك إمبراطور الإغريق والشرق، وأن الأرض التي تحتلها الآن بالقوة ستصبح حقًا لك، وسيقدمك كل النصارى، ويتخذونك قاضيًا، وأنه من المستحيل أن تنجح مادمت تتبع القانون الإسلامي»[1]، وقد أشار البابا بيوس الثاني في رسالته بوجود قواعد مشتركة كثيرة بين الإسلام والنصرانية، مثل الإيمان بإله واحد، وخلود الأرواح، والحياة بعد الموت، ولكن ثمة فوارق حول طبيعة الإله بالإضافة إلى ذلك ناقش أن العهد القديم الخاص باليهود وبالأمميين لم يحرف، ولكن كل منهما دعم الآخر، وكيف يمكن لكتابين في مثل وزنهما أن يكونا خاطئين؟ الآن السراسنة قالوا ذلك؟ ولم يعتقد البابا بيوس الثاني أن الإسلام دين معقول[2].

في الوقت الذي كان الهجوم السابق كله موجه من الكنيسة الكاثوليكية، فإن الهجوم الآن موجه من البروتستانت بزعامة مارتن لوثر (١٤٨٣م-١٥٤٦م) (Martin Luther) الذي تسبب خلافه مع الباب في إيجاد انقسام في النصرانية في العصور الوسطى، وفي الوقت نفسه كان هجوم الأتراك على أوربا أكثر تهديدًا وإزعاجًا، وقد ساعد الهجوم التركي قضية لوثر بطريقة غير مباشرة؛ حيث كان

(1) Ibid,p.100.
(2) Ibid,p.102.



اهتمـام البابا منصبًـا على المسلمين، فلـم يستطع أن يثير الملـوك لتدمير الحركة البروتستانتيـة[١]، أمـا بالنسبـة للوثـر فليس الأتـراك وحدهم هم الـذي يهددون النصارى، بل دينهـم أيضًا، وقد استنكر لوثر الاثنين، وعد الأتراك بأنهم القوق[٢] في إنجيـل القديس يوحنـا[٣]، وقرأ سنـة ١٥٢٩م ريكالدو المسمـى (Confutaatio Alcorani)، وكتـب لوثـر رسالتين عن الأتـراك: الأولى هـي: (Vom Kriege die Tuerken)[٤]، والثانية: (Heerpredigt Wider die Tuerken).

وبالإضافـة إلى ذلـك فقد قرأ ترجمـة معاني القرآن الكـريم في اللاتينية التي أعدهـا تيـودور بيليانـدر (Theodor Bibiliander)[٥]، وفي البدايـة عارض لوثر تحرك الكنيسة لتدمير الأتراك مطالبًا إياها بالتسامح، فقد عد «الدخول في حرب ضد الأتراك ما هو إلا معاداة لله الذي يعاقبنا على ذنوبنا عن طريق الأتراك[٦]، ولم يكـن لوثر يقول هذا شفقة بالأتراك، بل على العكـس إنها خدمة لمصالحه هو؛ لأنه عـد الكنيسة الكاثوليكية فاسدة إلى درجة أنها لا يمكن أن تدخل في حرب صليبية، لقد عد لوثر كلًا من الأتراك والبابا أعداء للنصرانية؛ حيث أن العدو الأول اضطهد النصرانيـة من الخارج بينما فعل ذلك الآخر من الداخل، ورأى شرعية موقفه من خـلال الكتاب المقدس بمقولة أن الكتاب يخبرنا (بأن مستبدين متوحشين يجب أن يدمروا ويخربوا النصرانية إعـدادًا ليوم القيامة، أحدهما (يحقق غرضه) روحيًا من خلال الخداع، أو العبادة المزيفة، وعقائد مخالفة لعقيدة النصرانية الصحيحة

(1) E.Grislis, «Luther and the Turks, part II». In the Muslim world vol.LXIV. No.4 (October 1974). P.284.

(٢) مـن قصص الإنجيل أن القوق Gog إحدى الأمتين التي حاربت في أمجدون بقيادة الشيطان وإرادة الحرب.

(3) G.Simon, «Luthers Attitude towards Islam». In The Muslim World.vol.xxi. No.3 (July 1931).p.258.

(4) ...

(5) Ibid., p.259.

(6) U.Wolf, «Luther and Mohammedanism». In the Muslim world vol.xxxi. No.2 (April 1941),p.162.

والكتاب المقدس: إنه البابا وبابويته، والأخرى خارجية بالسيف المادي الأكثر ترويعًا خارجيًا، وتمثل ذلك في الأتراك، وهكذا فإن نهاية العالم وشيكة، فإن الشيطان يجب أن يهاجم النصرانية بعنف بقوتيه كلتيهما في أكثر الصور وحشية) [1]، وقد صور الأتراك على أنهم من البرابرة، «وبالتأكيد هم آخر عذاب وأشده قسوة ضد المسيح الذي به يسكب البقية الباقية من غضب الله ضد مملكة المسيح... إنهم يتصرفون كأنهم الشيطان الغاضب» [2]، وبهذا العنف يرى الأتراك بأنهم يضعون «بيتك ومنزلك في النار، يأخذون أبقارك، وماشيتك، ومالك، وممتلكاتك، يطعنون حتى الموت، يغتصبون أو يقتلون زوجتك وابنتك أمام عينيك، يقطعون أطفالك إلى أوصال، ويضعونهم على أوتاد سورك، ويقودونك بعيدًا إلى تركيا، ويبيعونك كالكلب حتى تخدم بقية حياتك من أجل قطعة من الخبز، وشربة من الماء في شكل دائم نهارًا وليلًا، يقودونك بالعصي والهراوات، ومع ذلك لا تأخذ راتبًا، أو حتى كلمة شكر» [3].

وكتب لوثر بأن الأتراك قبضوا على النصارى الذين لم يستطيعوا المشي، وطعنوهم حتى الموت دون النظر إلى أعمارهم، «بينما الذين أخذوا إلى تركيا بيعوا مثل البقر والخنازير غير ملتفتين إلى من هو الأب، أو الأم، أو الطفل، أو الزوجة، تباع الزوجة في اتجاه، ويباع الزوج في اتجاه آخر، ويحدث الشيء نفسه للوالدين والأطفال» [4].

وغيّر لوثر فيما بعد طريقته السلبية مع الأتراك بإصداره أوامره للنصارى بقتل الأتراك، ودافع عن هذا الرأي بقوله: «إن من يقاتل الأتراك في حرب هم بدأوها يجب أن يعتبر أنه يقاتل عدوًا لله، وكافرًا بالمسيح، وبالتأكيد الشيطان نفسه؛ ولذلك عليه أن لا يقلق في أمر قتله للتركي الذي يمكن أن يريق دمًا بريئًا

(1) E.Grislis, Op.cit, pp.276-77.
(2) E.Grislis, Luther and the Turks. Part I. (the Muslim World vol.LXIV, No. 3 (July 1974), p.185.
(3) E.Grislis, «Luther and the Turks, part II»,Op.cit, 276-77.
(4) Ibid,p.277.



أو يقتل نصرانيًا، بل يجب أن يكون متأكدًا أنه يقتل عدوًا محكومًا عليه، وفقًا لكتاب دانيال بنار جهنم؛ لأنه عدو للمسيح»[١]. أما أولئك الذين يقتلهم الأتراك، فيعدون في صحبة القديسين في الجنة، وقد نصح لوثر الألمان كذلك بأنه عندما استولى الأتراك على مدنهم وقراهم أن يتبعوا سياسة الأرض المحروقة، وذلك بحرق «منازلهم وبيوتهم، وتدمير كل شيء حتى لا يجد الأتراك سوى الأطفال الصغار الذين سيقتلونهم، ويقطعونهم إربًا إربًا عندما يقودوننا إلى الأسر على أية حال»[٢]، وقد ولدت هذه الصور التي اختلقها لوثر احتقارًا وكرهًا للإسلام، وفي الحقيقة أكد لوثر بأن الأتراك قد تفوقوا على البربرية في التاريخ، و«السبب في ذلك أنهم مأمورون في شريعتهم بقتل ونهب أكبر عدد ممكن»[٣]، ويرى لوثر أن هدف تعاليم القرآن «ليس فقط تحطيم الديانة النصرانية، ولكن تحطيم حكومات العالم كذلك»[٤]، وليس من المدهش أن يتوصل لوثر إلى هذا الاستنتاج.

لقد اعتقد لوثر بأن الشيطان هو الذي خلق القرآن، وجادل بأنه كما أن البابا هو عدو المسيح، فكذلك الأتراك هم الشيطان بعد عودته إلى الحياة، واعتقد لوثر بأن ما كان يتعلمه الأتراك من القرآن كان حول الشيطان وليس الله، وأن الشيطان هو الذي كان يوجههم؛ لتحطيم العقيدة النصرانية»[٥]، وأن يأخذوا السيف، ويشرعوا في قتلهم[٦]، وقد اعتقد لوثر أن الإسلام قد «تولد من عقيدة النصارى، واليهود الوثنيين»، وجادل متحديًا أن النبي محمدًا ﷺ لم يقل على أنه رسول الله، واعتقاد الإسلام بزيف عقيدة التثليث وبطلانها، وجادل أيضًا بأن المسلمين «يضعون منطقهم في أمر صغير بقولهم: إنه لم يكن له زوجة، ولذلك لا يمكن أن يكون له ولد»[٧]، واعتقد لوثر أيضًا بأن المسلمين قد عبدوا محمدًا ﷺ على أنه

(1) E.Grislis, part 1. op,cit., 183.
(2) Ibid,p.183.
(3) Ibid,part II. Op.cit. p.277.
(4) Ibid,p.277.
(5) Helmut T.Lehman, Luthers Work Philadelphia Fortress press. 1976, p.181.
(6) Ibid,p.179.
(7) Umhau Wolf, Op.cit, p.170.

صنم؛ لأن التركي يرى سيدنا المسيح ومملكته على أنها لا شيء مقارنة بنفسه ونبيه محمد، ومع ذلك فالأمر خرافة حقًا[1]، لم تضف آراء لوثر أي بعد جديد للكراهية التي سبق أن زرعت في عقول النصارى، وجعله الأتراك ضحايا من خلال كرهه للإسلام، وبالإضافة لذلك فلكون مؤسس الحركة البروتستانتية لم يفتح بابًا جديدًا لدراسة الإسلام، بل على العكس أكد الآراء المعادية للإسلام الموجودة من العصور الوسطى في أوربا.

وهكذا كانت المناهج التي درس بها النصارى الإسلام من النوع المتعصب المتحيز.

ما المنهج المتعصب؟ إن فحصًا لمختلف جوانب هذا المنهج بالنسبة لدراسة الإسلام ستعطي القارئ فكرة كيف كانت دراسات النصارى المتعصبة ضد الإسلام تظهر صورة مشوهة للإسلام.

أولًا: نجد التحريف المتعمد للمصادر، فبدلًا من دراسة القرآن الكريم، والحديث الشريف كانت معظم البراهين تؤخذ من المبتدعة، ومن تجربة الصليبيين، وانطباعات الرحالة، والترجمات غير الدقيقة، والتحريف المتعمد للمراجع، وكانوا في هذا الأمر غير أمناء، ليس فقط مع الإسلام، ولكن مع أنفسهم.

وثانيًا: تمت هذه الدراسات بأفكار مسبقة لتناسب المصالح المبطنة، وفي الحقيقة «تلك الحقائق التي تميل إلى إظهار زيف الإسلام كانت مفضلة على كل ما سواها»[2].

وثالثًا: المبالغة المستمرة، وهو أمر مهم جدًا في تعصبهم، وكان هذا واضحًا ليس فقط في تناولهم حياة الرسول ﷺ، والأمور الجنسية في الإسلام، ولكنهم سخروا من كل جوانبه، وضخموها أحيانًا من أمر تافه، أو شوهوها حتى لا يمكن التعرف عليها، وفي الحقيقة طرحت المعلومات الصحيحة بزعم أنها غير سليمة»[3].

(1) Ibid,p.171.
(2) N.Daniel, Op.cit., p.240.
(3) Ibid,p.244.



ورابعًا: إن عداوة النصارى للإسلام أعمتهم حتى أنهم لم يستطيعوا أن يروا أي خير فيه، إنهم أساؤوا تمثيل الإسلام «أحيانًا من أجل التسلية، ولكن في أكثر الأحيان لخدمة الأهداف العليا للكنيسة»[1]، ومهما بلغ مستوى علمائهم لم يستطيعوا أن يكونوا موضوعيين.. وهكذا، فعندما «يواجهون بالاختيار بين قصص بديلة أقل أو أكثر تأييدًا لمحمد ﷺ أو للمؤسسات الإسلامية، فإن الدارس في العصور الوسطى للرسول، والمنتقدين لدينه تصرفوا وفقًا للافتراض أن ما كان أكثر ضعفًا في مصداقيته بدا لهم أنه غالبًا هو الحق»[2]، وإذا ما كان الخيار بين كاتب مسلم حول الإسلام، وآخر نصراني، فإنهم يختارون الأخير لشهادته، وكان الاتجاه العام حتى نهاية القرن السابع عشر مُصِرًّا على قبول المقولات الزائفة[3]، وقد عدُّوا الكتاب المنزَّل على المسلمين خطرًا على وجود النصرانية، كان هناك كراهية على نطاق واسع ضد الإسلام بين كتَّاب العصور الوسطى، وكل واحد منهم بذل وسعه؛ ليسهم في المعلومات الخاطئة، أو عدم تقدير المعلومات حول الإسلام، إن الآراء والمواقف التي تطورت من هذا أعدت أوروبا، وحركتها للحرب مع المسلمين.

الحروب الصليبية:

أصبحت النصرانية الشرقية التي تتخذ من القسطنطينية عاصمة لها قوية جدًا، وأرادت أن تنشر العقيدة النصرانية في جنوب شرق آسيا، والشرق الأوسط؛ لأن (الإمبراطورية) الإسلامية التي كانت في بغداد —وكانت قوية يومًا ما- أصبحت ضعيفة، ولكن هذا الحدث أحبط بسبب المسلمين الذين ظهروا في آسيا الصغرى، وكان هؤلاء هم الأتراك السلاجقة. لقد تحدوا الإمبراطورية البيزنطية سنة ١٠٧١م حين هزم السلطان ألب أرسلان الإمبراطور البيزنطي رومانس الخامس ديوجنس (Romanus IV Diogenes) في معركة ملازكرت في أرمينيا، لقد أبيدت قوات رومانوس وهو نفسه اقتيد إلى ألب أرسلان، وقد أظهر الحاكم التركي الرحمة

(1) Ibid,p.244.
(2) Ibid,p.248.
(3) Ibid,p.249.



عندمـــا ألقي رومانوسـ على الأرضـ؛ ليضع ألب أرســلان قدمه بصــورة افتعالية علــى رقبــة الإمبراطور، وقد أعجــب السلطان شيئًا ما بالإمبراطــور البيزنطي ذي الأكتــاف العريضة، وبعد أسبوعين أطلق سراحــه[1]، وعندما وصل الإمبراطور إلى القسطنطينية عزله نبلاؤها، وبالرغم من أن أرسلان، وابنه ملك شاه لم ينويا فتح القسطنطينيــة، فإنهمــا لم يكونا ليسمحا بأية أعمال عدائيــة أخرى ضد الإسلام، وعندما استولى ألكسيس كومنين (Alexius Commenus) على السلطة في بيزنطة سنــة ١٠٨١م كان طموحــه أن ينشــر الجامعــة النصرانيــة، وعندما شعــر بتهديد الأتــراك كتب رسالة إلى روبــرت كونت فلانــدرز (Robert count of Flanders)، وكذلك للبابــا أربان الثاني (Urban II) سنة ١٠٩٣م يناشد البابا أن يرسل قوات؛ لأنــه مــن الأفضل أن تسقــط القسطنطينية في أيديكم بدلًا مــن أن تسقط في أيدي الكفار، فهذه المدينة تمتلك أقدس آثار المسيح... جزءًا من الصليب الحقيقي الذي صلب عليه[2]، وقد اهتم البابا بهذه المناشدة، فدعا إلى اجتماع عام لرجال الدين، والعامــة، والنبلاء، والملوك في مدينة كليرمونــت في فرنسا في نوفمبر ١٠٩٥م حيث ألقى فيهم خطبة رنانة قائلًا: «أيها المحاربون النصارى الذين تبحثون دون جدوى عن مبرر للحرب افرحوا، فقد وجدتم المبرر الحقيقي، أنتم الذين كنتم دائمًا رعبًا علــى إخوانكم اذهبــوا وحاربوا البرابرة، اذهبوا وحاربوا مــن أجل تحرير الأماكن المقدســة، أنتــم الذين تبيعون من أجــل الحقير، ابذلوا قوة أسلحتكــم لإنقاذ أرواح الآخريــن، أنتــم المسلحون بسيف المذكبين، اذهبوا وحققــوا الجائزة الأبدية، فإذا انتصرتم على أعدائكم فإن ممالك الشرق ستكون جائزتكم، وإذا هزمتم فسيكون لكــم شرف الموت في المكان الذي مات فيه عيسى المسيح، وأن الله لن ينسى أبدًا أنه وجدكم في معارك مقدسة، إذا كان لابد من الدماء فاستحموا بدماء الكفار يا جنود النار أصبحوا جنود الله الحي»[3].

(1) R.Payne, the Dream and the Tomb. London: Robert Hale. Ltd., 1986, p.27.
(2) Ibid,p.29.
(3) Ibid,p.34-35.



والتهبت حماسة الحشـد وصاح «إن شاء الله»، وسقطوا على ركبهم، واعترفوا بذنوبهـم، وأخـذ القس أدهمار مـن مونتيـل (Adhemar of Monteil) صليبًا من القماش من البابا، وأخاطه على ذراعه اليمنـى، وأصبح رمزًا للصليبيين، وواصل البابا رحلاته في فرنسا مثيرًا الناس، وأصبح أدهمار المندوب البابوي للصليبيين.

وانتقـل صـدى الدعوة الصليبيـة إلى أوربـا، وإلى الملوك والفرسـان والجنود، وكذلك النصـارى العاديين، وجندت النساء والأطفـال لمحاربة المسلمين في الشرق الأوسـط، لقد جـاؤوا بالألوف من بريطانيـا، وفرنسا، وألمانيـا، واستثنيت أسبانيا مـن قبـل البابا أربان الثـاني؛ لأنها كانت تحارب العرب في دولتهـم، وقد أعطى في الحقيقة الغفران للأسبان الذين أرادوا أن يذهبوا، ومنعهم من الذهاب؛ لأن البابا لم يـرد للانتصـار العسكري ضـد المورسيكيـين أن يتعرض للخطـر بسبب مغادرة المحاربـين»[1]، وقد بعث البابـا النشاط في كل المؤسسة الكنسيـة؛ لتحريك شعوب أوروبا في الدول الأخرى.

وقـد أخـذ القس في كل قريـة ومدينة في تسجيـل النـاس في الحملـة الصليبية، وغالبًـا ما واجههم بعض النـاس بقولهم: «إن المسلمـين لم يؤذونني، فلماذا أحمل الصليـب ضدهـم؟»، وكان الجـواب يأتيـه: «بأنه لو فكـر جيدًا، فإنـه سيفهم أن المسلمين يهـددون كل النصـارى»[2]، وكانت الاستجابة لدعوة البابـا أربان الثاني سريعـة حتى أن بعضـ القساوسة مثل بيـتر النـاسك تحرك بحماسـة خلال ألمانيا وفرنسا لتكوين جيش، وانطلقوا إلى الشرق الأوسط سنة ١٠٩٦م، وفي طريقهم إلى القسطنطينيـة هاجموا حتى القرى المسيحية، وهاجمهم الأتراك بعنف، وذبحوهم لولا تقدم الإمبراطور ألكسس كومنين البيزنطي لإنقاذهم.

لقد كانـت انطلاقة الصليبيين الرسمية سنة ١٠٩٧ بقيـادة النبلاء الفرنسيين مـن أمثال: روبرت حاكـم نورماندي، واللوردات النورمان، مثـل بوهيمند وتنكريد،

(1) J.Riley-Smith, What were the Crusaders? London: the Macmillan Press, 1977, p.24.

(2) Ibid,p.30.





وكونـت بولواز، وبالدوين من بولونيا. لقد استولى الصليبيون على أنطاكيا، والرها، والقدس، وأسسوا ممالك صليبية، وبحلول عام ١١١٨م كان معظم سوريا وفلسطين تحت سيطرة الصليبيين، وكانت المجازر واسعة جدًا حتى أن دماء المسلمين وصلت إلى الركب عندما استولى الصليبيون على القدس[١]، وسواء كان هذا صحيحًا أم غير ذلك، فإن عدد القتلى كان عظيمًا جدًا، ولم يكن المشاركون في الحروب الصليبية كلهم ملوك، أو نبلاء، أو فرسان، أو جنود مدربون، بل على العكس كانت غالبيتهم وفقًا لأحد التقارير من «المجرمين، والرجال الخطيرين، والشريرين، والعصاة، واللصوص الذين لا يحترمون الدين، وكان منهم قتلة وطفيليون، والذين يقسمون الأيمان الكاذبة، والزناة، والخونة، والقراصنة، وأبناء الزنا، والسكارى، والمغنين، ولاعبي القمار، والمقلدين، والممثلين، والرهبان المرتدين، والراهبات العاملات في البغاء العلني، والنساء اللاتي تركن أزواجهن للعيش في المواخير، أو الرجال الذين تركوا زوجاتهم ليأخذوا غيرهن»[٢]، مثل هؤلاء لم يتسببوا في خلق فوضى شديدة فحسب، بل سجل مؤرخ عربي حالات من أكل لحوم البشر، وفي سنة ١٠٩٨م عندما غزا الصليبيون تحت قيادة بوهيمند مدينة المعرة السورية قتلوا سكانها، ولكن أسوأ من ذلك أن المؤرخ الحولي الإفرنجي رودلف من كين (Rudolph of Cean) كتب أن القوات الصليبية في المعرة غلت الوثنيين البالغين في قدور الطهي، وطوقوا الأطفال على الأوتاد وشووهم»[٣]، وكتب القادة في السنة التالية إلى البابا أن مجاعة في المعرة أجبرت الرجال على أن يتغذوا على لحوم السراسنة[٤]، مثل هذا التصرف مهما كان سببه إنما بذر بذور الكراهية لدى المغلوبين ضد الغالب.

وعندما استطاع القائد التركي عماد الدين زنكي أن يستعيد شمال سوريا

(1) G.E. Perry, The Middle East: Fourteen Islamic Centuries. Englewood Cliffs, N.J.: Prentice Hall Ltd., 1983, p.78.

(2) R.C.Finucane, Soldiers of the Faith: Crusaders and Muslims London: J.M. Dent&Sons Ltd., 1983, p.39.

(3) Amin Maalouf, the Crusades through Arab Eyes. London: Al-Sagi Books, 1984, pp.38-39.

(4) Ibid,p.39.



بحلول عام ١١٣٠م، ومدينة الرها سنة ١١٤٤م أطلق البابا يوجينوس الثالث (Eugenius III) الدعوة لحملة صليبية ضد المسلمين، واستجاب لهذه الدعوة ملك فرنسا لويس السابع، وملك ألمانيا كونراد (Conrad)، واستأنفت المعارك، وكانت هذه هي الحملة الثانية.

وواصل نور الدين زنكي ابن عماد الدين الصراع ضد الصليبيين، وأخذت دمشق سنة ١١٥٤م، بينما استولى أحد قادة صلاح الدين العرب على مصر سنة ١١٦٩م، وبعد وفاة نور الدين ١١٧٤م تولى صلاح الدين الحكم في (الإمبراطورية) الإسلامية، وأصبح أحد أبرز القادة المناوئين للصليبيين، واستطاع أن يستعيد القدس سنة ١١٨٧م، وهذا ما دعا الباب جريجوري الثامن (Gregory VIII) إلى إثارة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة ضد المسلمين، وأخذ الراية ضد الإسلام في هذه المرة ملك بريطانيا ريتشارد الأول، وفيليب الثاني ملك فرنسا، وفردريك باربروسا ملك ألمانيا (Frederick Bar Barossa)، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحققوا شيئًا ضد صلاح الدين، وعندما فتح صلاح الدين القدس منع قواته من ارتكاب المجازر، أو إراقة دم النصارى، وقد عامل الفرسان باحترام، وأطلق سراحهم، أما أولئك النصارى الذين لم يستطيعوا أن يدفعوا الفدية، أو لم يملكوا وسائل المواصلات لمغادرة المدينة، فقد دفع عنهم صلاح الدين الفدية، ويسر لهم الترتيبات بنفسه، وليس مدهشًا -حينئذ- أن نجد الصليبيين «معجبين بالقائد المسلم الذي كان عنده فضائل افترضوا أنها مسيحية»[1].

ومن أسوأ وقائع هذه الحملة تحت قيادة ريتشارد الأول كانت المذبحة التي قتل فيها ٢٧٠٠ مسلم صبرًا، كانوا سجناء في مدينة أكرا سنة ١١٩١م؛ حيث اقتيدوا مقيدين ثم ضربت أعناقهم، حاول النصارى تبرير فعلتهم هذه التي تعد في نظر المسلمين استشهادًا، ومن جهة أخرى كان صلاح الدين كريمًا حينما فتح القدس، ولكن بعد هذه المذبحة كان يقتل أسرى النصارى من كلا الجنسين»[2]، ولكن عندما

(1) P.H.Newby, Saladin in his Time. London: Feber&Faber, 1983, p.202.
(2) R.C.Finucane, Op.cit., p.99.

طلب أحد منه المساعدة، فإنه يستجيب مباشرة، ويروي لها مؤرخ عربي، وهو: بهاء الديـن بن شداد قصة لامرأة من الفرنجـة جاءت إلى معسكر صلاح الدين تتوسل مـن أجل ابنها المفقود، فأرسل صلاح الدين أحـد جنوده إلى السوق؛ ليرى إذا كان الطفل معروضًا للبيع أن يشتريه ويعود به، وفي خلال ساعة كان الطفل قد أعيد إلى أمه، وحالما لمحت الأم طفلها وقعت على الأرض، ومرغـت وجهها بالتراب، ورفعت رأسهـا إلى السماء، ولكننا لم نفهـم ما قالت»[1]، وفي أحيان أخرى لم يهمل صلاح الديـن أولئـك الذين أظهروا وحشية ضـد المسلمين، وكان أحد هـؤلاء أمير الكرك همفري (Humphry) الذي كان قد سلب قوافل المسلمين، وقتلهم، وعذّبهم، وأقسم صـلاح الدين أنه إذا مـا سقط في يده أنه سيقتلـه، وفي معركة حطين سنة ١١٨٧م سقط بعض الفرسان في الأسر، وكان من بينهم، فقتله صلاح الدين بضربة واحدة بالسيف، ولكنه عفا عن الآخرين[2].

وبنهايـة القرن الحادي عشـر، وبداية القرن الثاني عشـر كانت «صورة النبي، وطبيعة الإسلام قد تكونت في أوربا، وجمعت إلى بعضها في أحاديث المقاتلين الذين عـادوا إلى أوربا، وكذلك الإداريين الذين كانوا خلـف صفوف القتال، وقدمت هذه الصـورة في المدارس والأديرة بشكل مناسب للعقلية الغربيـة»[3]. لقد أنتجت هذه الصورة أساطير «حول النبي، والتخيلات الوصفية الغربية للممارسات الإسلامية، والتي تغيرت قليلًا من جيل إلى آخر»[4]، وقد أكد بعض الذين رافقوا الملك ريتشارد في حملته الصليبية من أمثال أبوت جواشم من فيور (Abbot Joachim of Fiore) بـأن هزيمـة المسلمين فقط هي التي يمكـن أن تجدد مكانة النصرانيـة، وأكدوا له كذلك بأنه سيهزم صلاح الدين.

(1) Francesco Gabrieli, Arab Histoirians of the Crusade. London:., 1984, p.III.
(2) P.M.HOLT, the Age of the Crusades. London, Longmans, 1986, p. 57.
(3) R.W.Southern, Western Views of Islam in the Middle Ages. Mass: Cambridge: Harvard University Press, 1980, p.29.
(4) Ibid,p.37.



وقد وعد البابا الناس بالغفران؛ ليحثهم على القتال حيث إن الذين يقاتلون ستغفر لهم ذنوبهم، ويدخلون الجنة، وجمعت التبرعات والضرائب سنة ١١٨٨م، (وعرفت هذه بـ «ضريبة صلاح الدين» بينما استخدم الغفران الضرائب من جهة، فمن الجهة الأخرى سعى الصليبيون إلى عقد تحالفات مع أعداء المسلمين، وكان هؤلاء الأعداء في ذلك الوقت هم المغول الذين سبق ذكرهم، وعندما دعا البابا جريجوري العاشر للمجمع الثاني في ليون لم يحضره النصارى فقط، بل حضره أيضًا ممثلون عن المغول) [1]. لقد كانت كراهية البابوات للمسلمين عظيمة لدرجة أنهم عدوا التعاون مع الوثنيين أفضل من التعاون مع الموحدين المسلمين، ولم يكن مفاجئًا أن المغول قتلوا المسلمين، وتركوا النصارى.

وفي أثناء الحملة الصليبية الرابعة قام النصارى بمذابح ضد أبناء دينهم حيث كانت هذه المذابح في القسطنطينية سنة ١٢٠٣م، وسنة ١٢٠٤م، وسلبت المدينة وسكانها، ونهب سكانها، واستبيحت ثرواتها، استنكر البابا أنوسنت الثالث (Innocent III) هذا العمل ودعا إلى حملة صليبية جديدة سنة ١٢١٥م، وتم إعداد الحملة الخامسة التي هاجمت مدينة دمياط في مصر سنة ١٢١٨م، وكانت نهاية هذه الحملة الإخفاق التام، ودعا البابا أنوسنت الرابع سنة ١٢٤٥م لحملة صليبية جديدة، وكلف ملك فرنسا لويس التاسع لقيادتها، وهزمهم المسلمون، وأخذ الملك سجينًا، ولكنه أطلق سراحه فيما بعد، ومني الغرب بهزيمة مذلة، وفي الوقت الذي كان التهديد المغولي قد تغلغل من بغداد إلى دمشق، وشنوا هجومًا على مصر، ولكن سلطانًا تركيًا جديدًا قد ظهر في مصر هو السلطان بيبرس، وهزم المغول في فلسطين، واستعاد المسلمون أنطاكيا سنة ١٢٦٨م، وأماكن أخرى مختلفة سنة ١٢٩١م، وكانت مدينة أكرا أيضًا في أيدي المسلمين، ولم تنس مذبحة ريتشارد للمسلمين في أكرا أبدًا، وبعد قرن من الزمان، وفي سنة ١٢٩١م عندما سقطت قبضة الصليبيين القوية عن المدينة قتل ألفا نصراني [2].

(1) R.C.Finucane, Op.cit., p.47.

(2) Ibid,p.99.

وفي هـذه الأثناء ظهـر الأتراك حاملين لواء الإسلام وبحـل الخميدس[1] أسس أرطغـرك مملكتـه في المنطقة الشماليـة الغربية من الأناضـول، وخلفه ابنه عثمان سنـة ١٢٨٠م، ووسع مملكـة والده، وعرفت هذه السلالة فيما بعـد باسمه، وواصل أبناء عثمان أورخان (١٣٢٤م-١٣٥٩م)، ومراد الأول (١٣٦٠م-١٣٨٩م) جهادهم ضـد الفرنجـة حتى وصلوا بـلاد البلقان مما جعـل نصارى البلقـان يشنون حملة صليبيـة ضد الأراضي الإسلاميـة بمساعدة من المجر وبولنـدا، ولكنهم هزموا في معركـة كوسونا سنـة ١٣٨٩م، ووسـع بايزيـد الأول (١٣٨٩م-١٤٠٢م) مملكته في البلقـان، وعـزل الإمبراطـور البيزنطي في مدينـة القسطنطينيـة، وحشدت حملة صليبيـة لإخراج الأتراك، ولكن الصليبيين هزموا في نيكوبولس (Nicopolis) سنة ١٣٩٦م، وذبح الأتراك تحت قيادة بايزيد ٣٠٠٠ سجين نصراني فيها.

وعانـى الحكم العثمـاني من نكسـة عندما استطـاع القائد المغـولي تيمورلنك (١٣٧٠م-١٤٠٥م) القادم من سمرقند أن يدخل، ويهزم قوات بايزيد في أنقرة سنة ١٤٠٢م، وعـاد تيمورلنك إلى سمرقند، ومـات فيها عام ١٤٠٥م، وبعد عدة سنوات تولى الحكم أحد أبناء بايزيد، وهو محمد الأول (١٤٠٣م-١٤٢١م)، وأعاد سيطرته علـى البلقـان، ودخل في معارك مـع النمسا، والمجـر، والصـرب، واليشـا (رومانيا حاليًـا)، ومرة أخرى حشدت أوربـا حملة صليبية بقيادة ملـك بولندا لاديسلاوس (Ladislaus) القائد المجري جون هونادي، وهزما الجيوش العثمانية، وتم التوصل إلى صلـح مدته عشر سنوات، وفي سنة ١٤٤٤م تنـازل الأتراك عن سيطرتهم على بـلاد الصرب ولاشيا (رومانيا حاليا)، ولكن البابا ألَّح على القائد هونادي، وأقنعه بأن المعاهـدة مع «الكفار» غير ملزمة، وانتهك الصليبيـون الصلح بإعلان الحرب على العثمانيين، ولكن العثمانيين هزموهم هذه المرة في معركة فارنا.

وبعـد أن تولى الخليفة محمد الثاني السلطة (١٤٥١م - ١٤٨١م) أعلن الهجوم ضـد الأوروبيـين، وكان فتـح القسطنطينيـة أبـرز أعمالـه حيث قتـل الإمبراطور

(1) ??????? ...

البيزنطي، وغيَّر اسم المدينة لتصبح استنبول، وجعلها عاصمة الدولة، وفي سنة ١٤٥٩م دعا البابا بيوس الثاني لحرب صليبية لإنقاذها، ولكن لم تلق دعوته سوى حماسة قليلة. لقد انتهت أيام دعوات البابوات إلى الحروب الصليبية ضد المسلمين في الشرق الأوسط، ولكن محاكم التفتيش ضد المسلمين في أسبانيا قد بدأت حيث إن (الإمبراطورية) العربية هنا قد وصلت إلى نهايتها.

لقد بدأت حملة الملوك الكاثوليك في أسبانيا لاستعادتها من العرب، فعندما استعاد جيمس الأول مدينة مورسيا سنة ١٢٥٦م بعث إليه البابا التهنئة، ونصحه بأنه «من الضروري القضاء النهائي على كل السراسنة»[1]، وطبقت هذه السياسة عندما تولى الحكم الملكة أسابيلا، والملك فردناندو (١٤٧٩م-١٥١٦م)، وفي الوقت الذي كانت تسقط فيه المدن الإسلامية قرطبة، والقصر، وفالنسيا، وأشبيلية، وغرناطة في أيدي النصارى طبقت سياسة التنصير الواسعة بعنف على جميع المسلمين، وقد استخدم القساوسة أمثال سيسنيروس (Cisneros) أسقف طليطلة الإجبار؛ حيث خيَّر مسلمو القصر سنة ١٥٠٢م بين تعميد أنفسهم أو النفي، وأطلق على هؤلاء الذين قبلوا التحول إلى النصرانية مورسكوس (تصغير مورس)، وحتى بعد تنصيرهم عانوا من التفرقة، وكانوا يحضرون أمام محاكم التفتيش؛ لأنهم لا يأكلون الخنزير، وصدرت المراسم العديدة تمنعهم من ختان أبنائهم، ومن الحديث بالعربية، ومن ارتداء الملابس العربية، أو التعاويذ، أو ذبح حيواناتهم على الطريقة الإسلامية[2]، وخلال عهد فيليب الثاني (١٥٥٥م-١٥٩٨م)، وخلفه فيليب الثالث (١٥٩٨م-١٦٢١م) عد المورسيكيون خطرًا على كل من الكنيسة والدولة، وحامت حولهم الشكوك بأن يكونوا طابورًا خامسًا حيث كانت قوة العثمانيين تتنامى في ذلك الحين، وكذلك ظهرت الحركة اللوثرية في ألمانيا، وقد عد اللوثريون هراطقة في الدولة الكاثوليكية، ونظر إلى المورسيكيين كمتعاونين مع أي قوة يمكن أن تعيد إليهم حقوقهم ومجدهم الماضي، وأصبح الموقف من الإسلام أكثر عداء في الوقت الذي

---

(1) Anwar Cheine, Islam and the West: The Moriscos. Albany, N.Y.: State University of New York Press, 1983, p.4.

(2) Ibid,p.11.

كان فيه القرن السابع عشر يوشك أن ينتهي، وقد شجع هذا الغرب أن يقوم بغارات في البلاد الإسلامية، ولكن التعصب التاريخي ضد الإسلام لم ينس أبدًا، ومن الأمثلة على ذلك أن آلافًا من الصربيين عادوا إلى أرض معركة كوسوفو (Koso-vo)؛ ليتذكروا أعظم معركة جرت على أرض أوروبية بين النصرانية والإسلام في ٢٨ يوليو سنة ١٣٨٩م[1]، وبالرغم من أن كوسوفو قد استعيدت من الأتراك سنة ١٩١٢م، وأصبحت تحت الحكم الشيوعي فيما بعد إلا أن العداء للإسلام لم يتوقف، ووصل اضطهاد المسلمين في بلغاريا قمته سنة ١٩٨٤م عندما أجبروا على تغيير أسمائهم الإسلامية، والتخلي عن ثقافتهم، وتصاعد الاضطهاد منذ ذلك الحين، وفي سنة ١٩٨٩م طرد الألوف منهم إلى تركيا[2].

استنتاج:

لوثت هذه الحروب التي جرت بين المسلمين والنصارى، والتي عرفت بالحروب الصليبية تاريخ القرون الوسطى، وقد قوّت هذه المشكلة الأساسية في الكراهية، وعدم الثقة بين المسلمين والنصارى، فعلى مستوى المؤسسات قامت الكنائس بإيصال هذه المشكلة إلى كل البيوت في الغرب على أنها علامة بارزة بين تاريخي الحضارتين ولا يمكن محوها، وحيث إن التاريخ شاهد، فإن كل جيل يقرؤه، ويكوّن مفاهيمه وآراءه، ولأن الغرب كان هو الخاسر في هذه المواجهات العنيفة، فإن تلك المفاهيم، والآراء تصور الإسلام دائمًا على أنه شيء سلبي ومخيف.

---

(1) See R.West, «Crusade and Jihad Collide in Serbia»in the Independent, 24 June 1989.

(2) For the history of Bulgarian Muslims see B. Simsir, The Turks of Bulgaria, Turkish Review, (Ankara: Turkey), Spring, 1989, pp.5-36.



الفصل الثاني



الرحالة والتجسس

من المعلـوم أن عددًا كبيرًا مـن الرحّالة كانوا يجوبون أرجـاء العالم الإسلامي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبالرغم من عدم وجود صناعة سياحية في ذلـك الوقـت؛ لتشجيع مثل هـذه الرحلات مثل توفر وسائـل مواصلات متطورة لجعـل هذه الرحلات متعة لهؤلاء الرحالة، وعلى الرغـم من تعرض هؤلاء الرحالة لمخاطـر كبيرة إلا أنهم كانوا يمضـون في رحلاتهم، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: مـا الذي جعل هؤلاء الرحالة الأوروبيـين مستعدين لمواجهة المخاطر المتعددة؟ وثمة احتمالات عديدة: فلعل بعضهم قد أراد أن يهرب من ثقافة بلاده، بينما سعى البعض الآخـر وراء متعة الاكتشاف، وأراد البعض الآخر أن يحقق شهرة لنفسه، بينما أراد آخـرون أن يتبعـوا صرعة ذلك العصر بأن يكون الرجـل الرحالة، أو المرأة الرحالة مـن أجـل المتعة، وعلى الرغم مـن وجاهة هـذه الاحتمالات إلا أنهـا لا تنطبق على العديد من الرحالة الذين غالبًا ما كانوا يتخذون أسماء إسلامية، ويرتدون الملابس الإسلامية، وبذلك يضمنون لأنفسهم التجول بحرية في المجتمعات الإسلامية.

إن الدوافـع التـي حركت أولئـك الذين اتخـذوا الهيئة الإسلاميـة كانت دوافع تخريبيـة، وبالطبع لم تكـن هذه الدوافع علنيـة، فلو كانوا مغرمـين بالمسلمين حقًا لدخلـوا الإسـلام، ولكـن كتاباتهم تبرهـن على عدائهـم الحقيقي تجـاه الإسلام والشعـوب الإسلامية، فما الأسباب التي دعتهم لتكبد المشاق للرحلة في بلاد كرهوا شعوبهـا ودينها؟ في البدايـة أراد البعض أن يثبت تفـوق النصرانية على الإسلام، وفيمـا بعـد حين أصبـح العالم الغربـي أكثر قـوة أرادت حكوماتهـم، ومؤسساتهم التجاريـة الخاصـة أن تتوسـع أكثر، وقد تم ذلـك عن طريق الاستغـلال التجاري، والتجسس السياسي، وهما السببـان الرئيسيان المختفيان تحت مظاهر مزيفة. إن الدوافـع التجارية كانت مجـرد مظهر للسيطرة السياسية، وكمـا أثبت التاريخ بأن شركـة الهند الشرقية كانت ستارًا خادعًا للاستعمـار الإنجليزي والهولندي، ولكل مـن الهند وإندونيسيا، ويصدق على هذا ما ذكره أحـد المؤلفين: «أن فكرة الرحلة كوسيلة لجمع المعلومات، وتسجيلها أمر شائع في المجتمعات التي تمارس درجة عالية

من القوة السياسية، يبدأ الرحالة رحلته بقوة أمة أو إمبراطورية تحافظ عليه (ولو من بعيد) عسكريًا، واقتصاديًا، وفكريًا .. يشعر بأنه مجبر على تدوين ملاحظاته، وهو على وعي بجمهور معين، مواطنوه عمومًا، وزملاء المهنة، ورئيس دولته أو ملكه[1]، وستجد البرهان على هذا بذكر تاريخ موجز لبعض الرحالة الأوروبيين.

لقد أثار اكتشاف فاسكو داجاما الطريق البحري إلى الهند في القرن الخامس عشر الإنجليز، والفرنسيين، والبرتغاليين، والهولنديين، وكان ثمة تنافس كبير بين هؤلاء؛ لتوسيع تجارتهم عبر الحدود الجديدة، وتطلب هذا الاستيلاء على بلاد جديدة، ولما كانت الإمبراطوريتان الرئيسيتان (المغول والأتراك) تحت سيطرة حكام مسلمين مما أثار اهتمامًا جديدًا بالإسلام، فأسست كراس لتعليم اللغة العربية في كمبريدج (١٦٣٢م)، وأكسفورد سنة (١٦٣٦م)، وكتب بدول (Bidwell) (١٥٦١-١٦٣٢م) الذي عُدَّ أبًا للدراسات العربية بأن العربية «كانت لغة الدين الوحيد، واللغة الرئيسية للدبلوماسية، ومن الجزر السعيدة إلى الصين»[2]، ولكن أغراض النصرانية لم تهمل.

واعتقدت الجامعات أن اللغة العربية سوف تبرهن على أهميتها «لخدمة الملك، والدولة في التجارة مع الأمم الشرقية، وببركة الله ستتوسع حدود الكنيسة، والدعوة إلى دين النصارى عند تلك الشعوب التي تعيش في الظلام»[3]، ومن المستعربين الآخرين المشهورين نجد أدموند كاستل (Edmond Castel) (١٦٠٦م-١٦٨٥م) الذي أصبح أول أستاذ للغة العربية في كامبريدج، وكذلك إدوارد بوكوك (Edward Pocok) (١٦٠٤م-١٦٩١م) الذي كان منصرًا، ثم أصبح فيما بعد أستاذًا للغة العربية في أكسفورد، وبغض النظر عن هذه الاهتمامات البرجوازية في اللغة العربية، فقد بدأ عدد من الرحالة رحلاتهم إلى الشرق الأوسط، وقد نظر وليام ليثقو (William Lithgow) أحد أوائل الرحالة إلى المسلمين على أنهم كفار،

---

(1) R.Kabbani, Europe›s Myth of Orient. Jndiana University Press, 1986. p.1.
(2) A.J.Arberry. British Orientalists. London: William Collins, 1933, p.16.
(3) A.J.Arberry, The Cambridge School of Arabic. Cambridge, 1948, p.8.

وقسمهم قسمين الأتراك، والمورسيكيين المقبولين، والعرب غير المقبولين، ونظر إلى العرب على أنهم لصوص، وأن المورسيكيين متوحشون، والأتراك «أفضل المصائب، ولكنهم أعداء أكيدون للمسيح»[(١)].

وازداد تعامل الإنجليز مع المسلمين في القرن الثامن عشر، وكذلك اهتمامهم بهم، وظهر جيل جديد من العلماء أمثال سيمون أوكلي (Simon Oklay)، وهو تلميذ سابق للمستعرب الأكسفوردي بوكوك الذي أصبح أستاذًا للعربية في كمبردج، وكتب «تاريخ السراسنة»، وكان من أولى الكتابات لمحاولة فهم الحضارة الإسلامية العربية، كما طبع كتاب: «ألف ليلة وليلة»بالإنجليزية سنة ١٧١١م نقلًا عن ترجمة فرنسية، وقرأتها أجيال عديدة، وأعطت صورة غير حقيقية للشعوب الإسلامية بأنهم فاسقون جنسيًا، ومغامرون، ومخادعون. وكذلك قام جورج سيل (George Sale) بترجمة معاني القرآن الكريم سنة ١٧٣٤م، وبالرغم من أخطائه الكثيرة، فقد قرأته أجيال عديدة، وبحلول القرن التاسع عشر كانت بريطانيا قد أسست طريقًا تجاريًا، وقامت بغارات سياسية في العديد من البلاد الإسلامية، وقد سقطت (الإمبراطورية) المغولية كلها في أيدي بريطانيا سنة ١٨٥٧م، وبالرغم من أن الشرق الأوسط كان لا يزال تحت السيطرة العثمانية، وكان الإنجليز يطمعون في الاستيلاء على بعض أراضيه، فإن عددًا من الرحالة الذين زاروا المنطقة أشاروا إلى أن المنطقة ستكون جائزة سهلة للإنجليز، وأحد أوائل هؤلاء الرحالة وأكثرهم شهرة هون جون لويس بوخارت (John Lewis Bukhart) الذي مات في القاهرة سنة ١٨١٧م، وكان جون يتنقل تحت الاسم الإسلامي: الشيخ إبراهيم بن عبد الله، وقد أكد كتابه: (بدو ووهابيون) الصورة السلبية للشعوب الإسلامية، فقد عد الأتراك أكثر قوة من العرب، ولكن تعميماته الكاسحة حول مضيفيه لم تكن أفضل حيث رأى أن «العرب يمكن تصنيفهم على أنهم أمة من اللصوص مهنتهم الأساسية السلب، وهو الموضوع المسيطر على تفكيرهم»[(٢)].

---

(1) See: Sari J.Nasir, The Arabs and the English. London: Longman Group ltd. 1979, p.28.

(2) Ibid,pp.59-60.

لم يرفض علماء الغرب مثل هذه المقولة بل أكدوها، ومن هؤلاء إدوارد وليم لين (Edward William Lane) (١٨٠١م-١٨٧٦م) الذي أصبح كتابه: (تقرير عن أخلاق وعادات المصريين في العصر الحديث) قراءة إجبارية لكل الغربيين المسافرين والدارسين للشرق الأوسط، ولما كان لين متأثرًا بشخصيات ألف ليلة وليلة، فإنه عرَّض المصريين، والثقافة المصرية في صورة مشابهة لتلك القصص، فقد صوَّر الرجال على أنهم عابثون، وأن النساء فاسقات، وقد ترجم ألف ليلة وليلة، وأصبح معدودًا في الفترة الأخيرة من عمره على أنه خبير في الشرق الأوسط.

وكان خليفة لين، وسار على منهجه في التفكير إدوارد هنري بالمر (E.H.Palmer) (١٨٤٠م-١٨٨٢م)، وهو نفسه اتخذ الاسم الإسلامي الشيخ عبد الله، وكتب إدوارد ترجمة لهارون الرشيد، وكذلك مذكرات عن رحلته عبر جزيرة سيناء بالإضافة إلى كتاب آخر بعنوان: (صحراء سفر الخروج) (Desert of Exodus)، ولم يضف عرضه أي تحسين على صورة العرب عما كتبه لين، بل إنه في الحقيقة نظر إلى العرب على أنهم لصوص، ونشروا الخراب، والعنف، والإهمال، وأن وجودهم يجب أن توضع له نهاية، لقد كان معارضًا لصورة البدو التي ابتدعها سابقوه، وهي: أن العرب هم «المتوحشون النبلاء» في الصحراء، بل على العكس عدهم «بلاءً شديدًا»، وبينما كان يتجول كمسلم كان أيضًا يقوم بتنفيذ مهام سياسية وعسكرية بأمر رئيس الوزراء البريطاني جلادستون (Gladstone)، فقد أرسل سنة ١٨٨٢م حتى يقنع زعماء البدو بعدم تأييد عرابي باشا الذي كان يقود تمردًا ضد البريطانيين، وقد أعطي مبلغًا يتراوح بين عشرين ألفًا وثلاثين ألفًا من الجنيهات؛ ليرشي بها خمسين ألف بدوي في تلك المنطقة. «وقد استخدمت الأموال التي وفرت له ليتظاهر بشراء الجمال؛ لأنه من الطبيعي أن الحكومة البريطانية لا يمكنها أن تنزل إلى مستوى الرشوة والفساد»[1]، ويقال: إن بالمر نجح في مهمته، وأن القائد البريطاني

(1) R.L.Bidwell, «Edward Henry Palmer (1844-1882)». British Society for Middle Eastern Studies Bulletin, vol.13, No,1, 1986, p.48.



جارنت وولسلي (Garnet Wolseley) استطاع أن يهزم قوات عرابي باشا في التل الكبير، ولكنه وثلاثة آخرين قتلوا في الصحراء على أيدي البدو.

وكان ريتشارد بيرتون (١٨٢١م-١٨٩٠م) رحالة آخر من المخربين، فقد رحل عبر السند وباكستان سنة ١٨٤٤م؛ ليتجسس لصالح القائد تشارلز نابيير (Charles Napier) الذي استطاع التغلب على هذه المنطقة، وتخفى بيرتون فيما بعد تحت اسم عربي، وانطلق في مهمته إلى الشرق الأوسط حتى أنه زار مكة والمدينة، وكتب كتابه: (الحج إلى المدينة ومكة)، وكتب عن الكعبة قائلًا: «ليس ثمة قطع أثرية ضخمة كالتي في مصر، وليس ثمة آثار رائعة وجمال متناسق كما في اليونان أو إيطاليا، أو ضخامة بربرية كما في أبنية الهند، ومع ذلك فالمنظر كان غريبًا وفريدًا، وكيف نظر إليه القليل على أنه شعيرة مقدسة، يمكن أن أقول حقًا: إنه من بين كل العابدين الذين تعلقوا بأستار الكعبة، أو ألصقوا قلوبهم النابضة بالحجر، لا أحد من هؤلاء شعر في تلك اللحظة بإحساس أعمق من الحاج الذي جاء من الشمال البعيد، لقد كان المنظر كما لو كانت أسطورة شعرية عربية تتحدث الحقيقية، وأن أجنحة الملائكة المنتظرة نسيم الصباح الجميل كانت مثيرة، ومضخمة للستارة السوداء المغطية للكعبة، ولكن اعترف بحقيقة متواضعة أن إحساسهم كان حماسة دينية، بينما كان إحساسي هو نشوة الفخر الشكور»[1]. لقد حاول أن يبني صورة للمؤمن المتوحش النبيل، ولكن اهتماماته بهؤلاء الناس كانت واضحة، ولقد نصح الحكومة البريطانية بأن تحتل الشرق الأوسط، وإذا اضطرتهم الضرورة السياسية أن يحتلوا مكة والمدينة، وقد نصح البريطانيين أيضًا بأن العرب يمكن أن «يقادوا» بسهولة إذا عرف الإنسان كيف يستغل نقاط ضعفهم، وقد لاحظ بيرتون أن الحكومة البريطانية لو رأت «من الضروري إنشاء أفواج من هؤلاء الناس، فقد لا يكون ثمة ما هو أسهل من ذلك: ادفع رواتبهم بانتظام، سلحهم تسليحًا جيدًا؛ ليعملوا عملًا شاقًا، وعاملهم بعدل ومساواة، وليس ثمة شيء آخر لتفعله، وسيكونون

(1) Quoted in K.Tridick, Heart Beguiling, Araby. Cambridge: Cambridge University press, 1981, p.71.



جاهزين لأعمال مشاة خفيفة»[1]، وبينما كانت هذه خدمة قدمها بيرتون لوطنه، فقد كان مهتمًا بالحياة الجنسية للشعوب التي زارها رجالاً ونساءً، لقد كان مفهومه للأنثى على أنها ممتلكات جنسية، وكانت ترجماته المثيرة جنسيًا تطبع بصورة خاصة وتوزع – على المشتركين – للرجال الراغبين في معرفة واسعة في الإثارة[2]، إن الصورة التي برزت عن الناس الذين استضافوه كانت بلا شك صورة مشوهة.

وكان وليم بلنت (Blunt) (١٨٤٠م-١٩٢٢م) على النقيض نسبيًا من بيرتون حيث كان معتدلاً في نقده للعرب، ولم يكن هذا؛ لأنه كان متعاطفًا معهم، ولكن لأنه أراد أن يكسبهم حتى يمكن أن يثوروا ضد الأتراك، وقد جعلت كتابته: «مستقبل الإسلام» بعض الاستعماريين من أمثال اللورد كرومر يعدون بلنت مهتمًا بنهضة الإسلام، وما كان هذا صحيحًا؛ لأن بلنت كان مهتمًا بتدمير الرابطة الدينية التي وحّدت الأتراك مع العرب من الداخل، فقد كانت نظرته للمصريين على أنهم مطيعون لدرجة أنهم يمكن أن يهتفوا للملكة بريطانيا، أو للبابا، أو الملك أشانتي بنفس الحماسة لو كان هؤلاء خفضوا الضرائب بمقدار فلس واحد»[3]، وهكذا كان بلنت يبذر بذور الدمار في (الإمبراطورية) العثمانية، لقد أقنع العرب أن الخلافة الإسلامية من حقهم فعليهم تحرير أنفسهم من النير التركي ومن أجل هذا جعل البدوي مساويًا لـ«رجل الصحراء المحترم»[4]، لقد كانت كتاباته مليئة بمديحهم، وحتى ناقدة لمواطنيه، وللسياسات البريطانية، ولكنه لم يكن غافلاً عن المصالح البريطانية، وكان راغبًا في تحرير العرب من الحكم العثماني، وعلى خطاه جاءت، أي لورنس (لورنس العرب) يطبق أفكاره حيث حارب القوات التركية طاردًا إياهم من بلاد العرب؛ ليضع في سدة الحكم بعد الحرب العالمية الأولى العرب الموالين للغرب.

---

(1) Ibid,p.75.
(2) Kabaani, Op,cit, p.55.
(3) Sari J.Nasir, Ibid., Op.cit., p.79.
(4) R.Kabbani, Ibid., Op.cit., p.97.



أمـا شارلز داوتي (Charles Doughty) (١٨٤٣م-١٩٢٦م)، فقد اتخذ الاسم الإسلامـي خليل؛ لأنـه كان قريبًا من جرس اسمه الأول، لقـد ارتحل كثيرًا في بلاد العـرب، وألّف كتابًا بعنوان: (رحلات في الصحراء العربية)، وقد عُدَّ كتابه مرجعًا معتمـدًا من قبل المختصين بالعرب أمثـال ت. أي. لورنس. وبمقارنة أعمال بيرتون وبلنت وداوتي، فقد كتب أحد المراقبين عن ذلك، قائلًا: «إن عمل داوتي كان بسيطًا وقاسيًـا جـدًا»[1]، وقد سار داوتي على نهج سالفيـه في التفكير حيث صنَّف العرب ضمـن الشعوب المتخلفـة، وأن «فم العرب كما هو ملـيء بالشتائم كذلك صلواتهم وقلوبهـم .. مخادعة، ومزدرية، وقاسية، وسمعتهم فاضحة»[2]، وما كانت آراؤه في الإسـلام بأفضـل من ذلـك بكثير حيث كتب يقـول: «إن دين السيـف العربي يجب إخضاعه بالسيف»، وقد عد النصرانية متفوقة على الإسلام، فالإسلام «هو الوجه المفـزع لدينهـم»[3]، وعندما قابـل رحالة إيطاليًـا متعاطفًا مع الإسـلام استشاط داوتي غضبًا، وكتب أنه لم يترك انطباعًا لديه، فكيف يمكن لإيطالي ولد في الدولة الرومانية ويحمـل اسم المسيح أن يصبح أخًا للبرابـرة الآسيويين؟»[4]، ومعلوم أن داوتـي كاد أن يفقـد حياته على أيدي العرب الذين عـدُّوه كافرًا لو لم يتدخل رحَّالة مسلـم لإنقـاذه[5]، كان داوتي يريد مـن بريطانيا أن تستولي علـى مكة، وأن تحمي النصـارى في البـلاد العربية، وكان مؤيـدًا وطنيًا للسياسيـة الإمبريالية في الشرق الأوسـط، وكان يشعـر بالنشوة والفخـر حينما كان يخبر العرب بـأن طعامهم كان «رز الإنجليز ومعبأ في أكياس الإنجليز، وعليه علامات بكلمات إنجليزية، وتكسون جيـدًا؛ لأن القطن على ظهوركم قد نسج وغزل في معامل الإنجليز، أنتم لا تقدرون إن الذي يغذيكم جزئيًا هم الإنجليز، وهم الذين يكسونكم»[6].

(1) Thomas J.Assad, Three Victorian Travellers. London: Routledge and Kegan Paul, 1964, p.x.
(2) Sari J.Nasir, Op.cit., p.142.
(3) K.Tidrick, Op.cit., p.142.
(4) R.Kabbani, Op.cit.p.106.
(5) K.Tidrick, Op.cit., p.145.
(6) Ibid,p.156.



وثمة رحَّالة آخر هو: جيفورد بالجريف (Gifford Palgrave) (١٨٢٦م-١٨٨٨م) الذي بالرغم من مظهره النصراني المتميز إلا أنه دافع عن المصالح الإمبريالية الفرنسية في عهد نابليون الثالث، ويذكر عنه أنّه ارتدى الزي المحلي السوري، وظهر بصفة طبيب سوري نصراني متخذًا الاسم سالين أبو محمود الآيس (الساكت)، واضطر للهروب من سوريا حينما قامت الحرب الأهلية بين الدروز والمارونيين سنة ١٨٦٠م، وعندما بعثت فرنسا قوة عاجلة؛ لإعادة النظام قدّم بالجريف تقارير لنابليون، كما زار بالجريف مصر، وأعد تقارير تجسسية قدم فيها «خطة مفصلة لغزو فرنسي لكل من سوريا ومصر، ولتكون السيطرة لفرنسا على كلا البلدين»[1]، وعندما في الرياض شك فيه ابن أمير نجد حينذاك، فأخبره بأنه ليس طبيبًا، وأن «الجواسيس والنصارى والثوريين .. يأتون إلى بلادنا؛ ليفسدوا ديننا ودولتنا لصالح أولئك الذين أرسلوهم»[2]، وعمل لمصلحة الإنجليز فيما بعد لإطلاق صراح من اعتقلوا في الحبشة، وكان يسخر من الإسلام والعرب، ونظر إلى البدو على أنهم «فرع منحط من شجرة العرب»[3].

ركز الغرب على كل من الأتراك والعرب، لكنهم لم يهملوا الإيرانيين، فبالإضافة إلى الروس كان للبريطانيين نفوذ ضخم على النخبة الحاكمة في إيران، فقد ضمَّن روبرت بورتر (Robert Porter) تصويرًا كتابيًا لإيران في كتابه: (رحلات سنة ١٨٢٠م؛ حيث رسم صورة مثيرة للمجتمعات الإسلامية تمشيًا مع التوقعات الغربية، ولكن كتابه لم يكن مؤثرًا ككتاب جيمس موريير (James Morier) (حجي بابا الأصفهاني)، فقد كان مؤلف هذا الكتاب يعمل في السلك الدبلوماسي في طهران لعدد من السنين، ونشر كتابه سنة ١٨٢٤م، وقد عدّه مؤلفه «النتاج الناضج لتجربته الإيرانية وآرائه»[4]. أما الشخصية الرئيسية في كتابه: «حجي بابا»، فقد

(1) Ibid,p.90.
(2) Ibid,p.92.
(3) Ibid,p.97.
(4) Sarah Searight, The British in the Middle East, London: East West. Publication, 1979, p.258.



كان ابن حلاق اعتاد أن يعرّي إيران من سحرها، ويظهر شخصيته الخبيثة بخداع زبائنه، وقد تناول موريير معظم جوانب الحياة في إيران في القرن التاسع عشر تقريبًا، وبأسلوب روائي ساخر عارضًا كل الشخصيات التي قابلها، وكانت نشطة في الصراع الروسي الإنجليزي، كان عمله تشويهًا للصورة الإيرانية، وإضافة جديدة للصورة السيئة التي وضع فيها الغربيون العرب والأتراك، وعندما نشر الكتاب بعث السفير الإيراني في لندن ميرزا أبو الحسن إلى موريير قائلًا: «الشعب الإيراني سيئ جدًا، ولكنهم كانوا طيبين معك، فلماذا تسيء إليهم؟»[1]، وكثيرون هم الذين قرؤوا الكتاب، ومن هؤلاء كيرزون (Curzon) الذي قال عن شخصية حجي بابا: إنه كان «نموذجًا ليس فقط للحياة والمحيط، ولكن لشخصية مواطنيه، وغرائزهم، وطرائق تفكيرهم»[2].

ومن هؤلاء الرحالة أيضًا هنري لاياردز (H.Layards) الذي جاء إلى إيران في منتصف القرن التاسع عشر لإجراء حفريات أثرية في نينوى ونمرود، ونشر كتابه: (مغامرات مبكرة) سنة ١٨٨٧م، لقد عاش بين ظهراني البختياريين الذين وجدهم مغرمين بالحروب، ومما هو أكثر أهمية من كتاب لايلارد ما كتبه جورج كيرزون الذي دونت رحلاته الواسعة في كتابه: (فارس والمسألة الفارسية)، وكان الهدف من رحلة كيرزون إلى بلاد فارس سنة ١٨٩٩م هو استكشاف المشكلات السياسية في تلك الدولة التي كان من الممكن أن تقف عقبة في طريق التوسع البريطاني في إيران، وفي منطقة الخليج الفارسي، وكذلك النظرة في إمكانية وجود هجوم مضاد من قبل الروس، وكان كتاب كيرزون أكثر أهمية لأسباب سياسية، ولكنه لم يكن متعاطفًا مع موضوع بحثه، وأفضل تلخيص لهذا الكتاب ما جاء في مقال أحد الكُتّاب الذين قدموا عرضًا له: «يبدو أن السيد كيرزون واقع تحت تأثير الانطباع بأنّه مكتشف بلاد فارس، ولأنه المكتشف فإنه الآن، وبطريقة غامضة يمتلكها»[3]، ومع ذلك فقد كان كيرزون خادمًا مخلصًا للإمبريالية البريطانية، وكان لآرائه

(1) Ibid,p.259.
(2) Ibid,p.258.
(3) Ibid,p.190.



قيمة عند الحكومة البريطانية، ولما كان التوسع الاستعماري آخذًا في الازدياد، فقد ظهر جيل من الاستعماريين الذين يعدون أنفسهم متفوقين على شعوب الأمم غير الغربية، واعتقدوا أن مهمتهم مهمة تحضيرية، ولم يكن لديهم حتى الرغبة في فهم وجهات نظر الشعوب المستعمرة، ولكن فضلوا إشغال أنفسهم بمخططات فرض الثقافة الغربية، وقيمها على الأنظمة الاجتماعية، والسياسية للبلاد غير الغربية.

وثمة رحّالة آخر قام بدراسة شاملة لإيران في الجزء الأول من هذا القرن هو: إدوارد جرانفيل براون (E.Granville Browne)، وكان كتابه: (سَنَة بين الفرس) أكثر من مجرد وصف لرحلة حيث تضمن مقدمة تامة حول ثقافة إيران وشعبها، وكان كتابه بالنسبة للإنجليز دليلًا لإيران على درجة

من الأهمية تساوي ما كتبه غيره من الكُتّاب حول بلاد العرب، وفي الحقيقة، ووفقًا لأحد المعلّقين «لم يكتشف كاتب آخر في هذه الفترة روح الشعب، أو تشبّع بها إلى الدرجة نفسها التي وصل إليها براون»[1]، ومع ذلك فإن روح الشعب الإيراني تكمن في الإسلام، وكان هذا صحيحًا بصفة خاصة؛ لأنه في النصف الثاني من القرن العشرين كانت معظم الحركات تسعى إلى رعاية أحوال الجماهير الفقيرة في هذه البلاد، وصدرت عن المجتهدين الإيرانيين في النجف وفي قم، وفي الحقيقة جاء أقوى معارضة للقاجر من المجتهدين، وهو تقليد احتفظ به، وبقوة سلسلة من الخلفاء من آية الله شيرازي من النجف (العراق) إلى آية الله الخميني من قم[٢].

لقد فشل براون في إدراك قوة الإسلام؛ لأنه لم يجدها، ولكن لأنه لم يرغب في الاعتراف بها، ولم يكن من الممكن عدم إدراكها؛ لأنه في الوقت الذي كان فيه في إيران الثورة الدستورية على أشدها، ومع ذلك فكما أن القوى الاستعمارية كانت تتطلع إلى تأييد الحركات الدينية المزيفة المعادية للإسلام، كما فعل البريطانيون مع القاديانيين في الهند، فقد وجد براون الشيء نفسه في البهائيين في إيران، لقد كان متأثرًا جدًا بهم بعد أن قابلهم في كرمان، وكتب عن ذلك قائلًا: «لقد نفذ

(1) Ibid,p.190.

(٢) في هذه الملاحظة إغفال لدور السُّنّة في إيران الذين لا شك لهم وجود مهم في إيران. (المترجم).

إلى كيـاني كلّه إشعاع الجمال الهادئ، وذكريات تلك الاجتماعات مع البهائيين، ولا يمكـن أن يخبو من ذاكرتـي تلك المجموعات من الوجوه، وتلـك النغمات، ولا يمكن للوقـت أن يمحوها، لقـد تفرست برهبة في عمل تلك الروح القوية، وأعجب إلى أين تميل»[1].

وفي الحقيقـة أنـه رحل للالتقاء ببهاء الله زعيم البهائيـين الذي استقر في عكا بفلسطـين سنـة ١٨٩٠م، لقد احتلـت كتابات براون مكانة عالية لـدى حكام القجر المنحلين حتى إنه لما مات سنة ١٩٢٦م أعلنوا ذلك اليوم حدادًا عامًا في إيران.

إن كل الرحّالـة الذيـن اخترناهم هنا سـواءً أكانوا إنجليز أم غـير ذلك كانوا عنصريـين وإمبرياليين، عمل كل واحد منهم لخدمـة المصالح الإمبريالية لبلاده، وظهـر إمـا كمسلـم، أو عربـي نصـراني، واستفـاد من الشعـب الذي أبـدى كرم الضيافة، ووثقوا فيهـم، ولكن ظهر اتجاهان في كتابات هؤلاء الرحّالة بغض النظر عن الأهداف السياسية:

الأول: «الإصرار على الادعاء بأن الشرق هو مكان الفجور الداعر.

والثاني: أنه عالم يتصـف بالعنف الموروث، وهذه الموضوعات كانت لها أهميتها في فكـر العصـور الوسطى، فلـو كان من الممكـن الافتراض بأن الشعـوب الشرقية كانـت خاملة، ومشغولة بالجنـس، وعنيفة، وغير قادرة على حكـم نفسها، فعندئذ سـوف يشعر الإمبريـالي أنه محق في التدخـل والحكم»[2]، وبهـذا التبرير اقتحم الاستعماريون البلاد للسيطرة السياسية والاستغلال الاقتصادي، وقد قدمت حقبة الرحّالـة معلومـات تجسسيـة كافية حول الأوضـاع في الشرق الأوسـط. أما الجيل الجديـد من الرحالة فقـد كانوا ضباطًـا في الاستخبارات العسكريـة من مثل جي إي ليثمـان (G.E.Lezchman)، وتي. أي. لورانـس.، وهـ. سيت فيليبي، وجي. بي. جلـوب الذين تخصصوا أيضًا في الشرق الأوسـط فقد كان ليثمان يجمع المعلومات المخابراتية في العـراق، وكان لورانس يعمل مع الشريف حسين شريف مكة، وأصبح

(1) Quoted in Ibid,p.191.

(2) R.Kabbani, op.cit., p.6.



فيليبي صديق ابن سعود، وكان جلوب يعمل في إيران والأردن، وقد كتب بعض هؤلاء كتبًا تصف رحلاتهم؛ لتؤكد فقط الصور التي ابتدعها رحالة القرن التاسع عشر، ولكن الشرق الأوسط قد أُعدَّ كذلك للسيطرة السياسية، والاستغلال الاقتصادي.

الاستنتاج:

إن معظم هؤلاء الرحّالة قد جمعوا معلومات مخابراتية مباشرة أو غير مباشرة لصالح دولهم، وكانت مثل هذه النشاطات سرية، ولم يعترف بها علنًا أبدًا، وبالرغم من أنَّ السفارات الدبلوماسية قد وجدت في بعض البلاد الإسلامية، لكن الرحالة المتنكرين بالملابس والأسماء الإسلامية تمكنوا من الوصول إلى الجذور، وقد استبدلت الدول الغربية هؤلاء في العصر الحاضر بوكالات المخابرات مثل وكالة المخابرات المركزية (C.I.A)؛ حيث تغلغل عملاؤها في الدول الإسلامية بالتظاهر بالعمل كصحافيين أو رجال أعمال... إلخ، لقد أصبحت صناعة جمع المعلومات المخابراتية أكثر تعقيدًا من خلال الثقافة الحديثة التي يستخدمها الغرب ضد الدول الإسلامية؛ لأنها مناطق ذات مصالح رئيسية للدول الغربية.



الفصل الثالث

الإستعمار والمستشرقون

أخضـع الاستعمار الغربي شعوبًا من مناطق مختلفة من الكرة الأرضية لحكمه، وكان يعتري الاستعمار خوف واحد هو الإسلام، وبالتالي فقد كان ثمة جدل واسع خلال الحقبة الاستعمارية حول كيفية احتواء الإسلام، فبدون احتوائهم للإسلام، فإن احتلال البلاد الإسلامية سيكون دائمًا تهديدًا للغرب، فقد أدرك سنوك هورخرونيه (Snouck Hurgronje) الخطر الحقيقي الذي تمثّله الخلافة العثمانية، فحذّر القوى الاستعمارية من خطورة معتقدات المسلمين السياسية والدينية في ميدان العلاقات الدولية[1]، فلو قبلت القوى الاستعمارية الإسلام مبدئيًا، فإن ذلك سيكون له مضامين سلبية؛ لأن الشعوب الإسلامية ستقبل حكامها المحليين على أنهم «أمر شاذ»[2]، وقد أكد أن مبدأ الجامعة الإسلامية خطر على الاستعمار، واعتقد هورخرونيه أنه بالرغم من أن الخلافة الإسلامية لم تكن دينية تمامًا إلا أن القوة الدينية ما تزال في أيدي العلماء[3]، وما تزال المشكلة باقية: كيف يجب احتواء الإسلام؟

قدم البارون كارا دوفو (Cara de Voux) أحد الحلول للحكومة الفرنسية ذلك أنه كان دارسًا متخصصًا في ابن سينا، وعضوًا في المعهد الكاثوليكي الفرنسي، ومما جاء فيه: «إننا يجب أن نقسم العالم الإسلامي، نحطم وحدته المعنوية مستخدمين في هذا الانقسامات العرقية والسياسية .. ولذلك فعلينا أن نؤكد هذه الخلافات من أجل أن نزيد من جهة الشعور القومي، ومن جهة أخرى نضعف الجماعة الدينية لدى الأجناس الإسلامية المتعددة، وبعبارة مختصرة: دعنا نقطع الإسلام[4]، وكان العمل المهم هو «إضعاف الإسلام .. لجعله غير قادر إلى الأبد

---

(1) Marwan R. Buheiry, Colonial Scholarship in Muslim Revivalism in 1900. Arab Studies Quarterly, vol. 4, Nos. i-2, 1982, p.7.

(2) Ibid,p.7.

(3) Ibid,p.7.

(4) Ibid,p.5.



على النهضة»[1]، ويعرف هذا المبدأ عمومًا بـ«فرّق تسد»، وقد استخدمته جميع القوى الاستعمارية، وما تزال تستخدمه إلى هذا اليوم في البلاد الإسلامية؛ حيث تم تقسيم الخلافة العثمانية، والبلاد الإسلامية إلى دول قومية، ولكن الخطر مازال ماثلًا في الإسلام، والذي كان باستطاعته تجاوز الحدود القومية – فهو مستمر في إزعاج القوى الاستعمارية–، وقد أدى هذا الخوف لدى الاستعماريين إلى تشجيع دراسة الإسلام دراسة جادة، فالإسلام يحتاج إلى إعادة تفسير، فلو قبل المسلمون تفسيرات جديدة للإسلام، فإن موقفهم لن يعكس بالتالي الروح الحقيقية للإسلام والقوة الإسلامية، وقد لخص ذلك الكاتب الجزائري من وهران محمد بن رحال تلخيصًا صحيحًا حين قال: «إن العداوة هي الملاحظة المسيطرة في إحساس الغرب تجاه الإسلام .. فلو دافع المسلم عن بيته، ودينه، وأمته، فإنه لا ينظر إليهم على أنه وطني، بل متوحش، وإذا ما أظهر الشجاعة والبطولة، فيقال عنه: متعصب، وإذا هُزم وأظهر الاستسلام، فيقال عنه: جبري .. (إن الإسلام) محكوم عليه دون محاكمة، وتشوّه سمعته بانتظام، ويُسخر منه دون معرفته»[2]، وشجع الاستعماريون هذا الفرع المعرفي الجديد، وواجه المستشرقون التحدي لاحتواء الإسلام.

بدأت دراسة الغرب لعالم الشرق في وقت مبكر يعود إلى القرن السابع عشر والثامن عشر، وكانت هذه الدراسات ترى الشرق مثيرًا وغامضًا، وقد قام أمثال إبراهام هايسنثر انكويتل دوبيرون (Abraham-Hyacinthe Anauetil Dupper-ron)، وسير وليام جونز بترجمة نصوص الأفستا عن الديانة الزرادشتية، وترجمة الأوبانشدة عن الهندوسية، وأسسوا الجمعية الآسيوية البنغالية سنة ١٨٤٧م، أما ما يطلق عليه الاستشراق العلمي فقد بدأ عندما افتتح سيلفستر دو ساسي (Silvester de Sacy) «مدرسة اللغات الشرقية الحية» في باريس سنة ١٧٩٥م[3]، وكان مدهشًا أن نابليون خلال غزوه لمصر اصطحب معه عددًا من العلماء الذين

(1) Ibid,p.5.

(2) Ibid,p.14.

(3) C.E, Bosworth, Orientalism and Orientalists in Grinwood. Arab Islamic Bibliography. Sussex: Harvester press, 1977, p.148.

كتبوا ثلاثًا وعشرين مجلدًا عن المصريات (عهد الفراعنة)، والتي كانت مصممة «لإعادة المنطقة من وضعها المتوحش الحالي إلى عظمتها القديمة؛ لتعليم الشرق (لمصلحته) بطرق الغرب ولإخضاع، أو إضعاف القوة العسكرية من أجل تعظيم مشروع المعرفة المجيد الذي تحقق بالسيطرة السياسية على الشرق، ولتشكيل الشرق، وإعطائه هيئة وصورة وتعريفًا مع الاعتراف التام بمكانته في الذاكرة، وأهميته للخطة الإمبريالية، ولدوره كتابع ذليل لأوربا ..»[1]، وقد أدى هذا الاهتمام المبكر إلى إصدار عدد من الترجمات والمعاجم، والكتب السياحية... الخ، وكلها متخصصة؛ لتشرح الشرق، ولجعل دراسته أيسر من خلال معرفة لغاته وآدابه.

وبحلول القرن التاسع عشر تم تجديد هذه الأساليب الفوضوية، والاستقلالية بمناهج أكثر نشاطًا، وقوة تمشيًا مع الوعي العلمي؛ لذلك الزمن حيث تم الاتفاق الجماعي على تطوير الطريقة التي تتم بها دراسة الشرق عند علماء المشرقيات، وبدأ الاستشراق يحقق الاعتراف به كفرع معرفي مستقل، ويجب أن نتذكر أنه في البيئة التي ولد فيها الاستشراق كان ثمة حاجة له، وقد ولّد هذه الحاجة التوسع في الاحتلال، والمصالح الاستعمارية، فقد أقيمت مستعمرات جديدة، وواجه المستعمرون ثقافات جديدة، وأديان وأفكار جديدة، وكل ذلك كان غريبًا بالنسبة لهم، ومن أجل السيطرة على هذه الشعوب غير الغربية كانت الحاجة ماسة إلى زيادة المعرفة بثقافاتهم وأديانهم، وقد لبى الاستشراق العلماني هذه الاحتياجات، وفتحت جبهة جديدة ضد الإسلام شارك فيها علماء من النصارى ومن اليهود، وأصبحت آراء المستشرقين منذ ذلك الحين، «جزءًا أساسيًا في الثقافة الغربية»[2]، وقد جعلت كتابات أمثال سيلفستر دو ساسي، وأرنست رينان، وإدوارد وليام لين من «الاستشراق مؤثرًا ومنسجمًا مع المصالح والاهتمامات السياسية للحكام الإمبرياليين»[3]، ويقدم إدوارد سعيد أنسب تعريف للاستشراق بقوله عن عمل

(1) E.W.Said, Orientalism, London: and Routjedge and Kegan Paul, 1980, p.86.

(2) Stuart Schaar, «Orientalism at the Service of Imperialism», in Race and Class, Vol XXI, No. 1, 1979, p.68.

(3) Ibid,p.69.



الاستشراق بأنه: «الفهم في بعض الحالات من أجل السيطرة والتلاعب، وأحيانًا دمج ما يعد بوضوح عالمًا مختلفًا»(١).

ساعد الدارسون للاستشراق الاستعماريين في جعل غزوهم أمرًا مشروعًا، بل كان بعض المستشرقين مشتركًا اشتراكًا مباشرًا في مساعدة الإدارات الاستعمارية لبلادهم بتقديم تفسيرات يستطيع بها المستعمرون مجادلة المواطنين في فهمهم للإسلام: فمثلًا عمل لويس ماسنيون في خدمة وزارة الخارجية الفرنسية، وكذلك الإدارة الاستعمارية في المغرب، ووفقًا لماسنيون «فإن منحنى التطور يميل أكثر وأكثر نحو باريس، وإن غالبية جمهور الشمال الإفريقي يتجهون بأنظارهم نحو باريس، وليس الشرق»(٢)، وأصبحت الدراسات الاستشراقية بالنسبة لكل من الاستعماريين الفرنسيين، والبريطانيين الذين كانوا يحتلون بلادًا إسلامية تفوق مساحتها جغرافيًا عدة مرات مساحة بلادهم، أصبحت هذه الدراسة «عونًا لإخضاع الأراضي المستعمرة، ووسيلة لتحقيق أهدافهم الاستعمارية»(٣).

وسرعان ما استغل الاستعمار هذه الفرصة للترويج للأفكار العلمانية التي تسعى إلى فصل الدين عن السياسة، وقد وجد هذا الأمر تجاوبًا من بعض الحكومات في العالم العربي الإسلامي التي عارضت أن يكون الإسلام حكمًا على تصرفاتهم السياسية والشخصية، إن مبادئ الاستعماريين العلمانية عكست قواعد السلوك في ثقافتهم السياسية التي أخضعت الكنيسة إما للحاكم الفرد، أو للبرلمان، ووجدت هذه الأفكار العلمانية مؤيدين جدد لها ليس فقط بين العرب، والأتراك، والإيرانيين، بل أيضًا بين حكامهم السياسيين المتغربين، وكان من نتائج ذلك أن أفكارًا جديدة بخصوص صياغة «دستور»، وتطبيق المبادئ الغربية المتحررة مثل «الديموقراطية» التي تعمل من خلال ممثلين منتخبين في «برلمانات» قد غيَّر شكل البناء السياسي في الشرق الأوسط، وبدَّلته من الأساس.

(1) E.W.Said, op. cit., p.12.

(2) Muhammad Benaboud, «Orientalism and the Arab Elite, in the Islamic Quarterly, Vol. XXVI, No. 1, 1982, p.7.

(3) Ibid., p.9.



وأصبح الاستشراق بالتالي أداة مهمة قيِّمة لتدمير الإسلام، وكانت المهمة الأساس في هذا التدمير هو نزع «مخالب» الإسلام التي يمكن أن تبطل الاستغلال الاستعماري للبلاد الإسلامية، لقد أعطى الاستشراق تفسيرًا غربيًا للإسلام، وشوّهت المعاني الحقيقية لبعض المفاهيم الإسلامية مثل الجهاد، والأمة، والتوحيد... الخ. وأنشئت أقسام الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية، ومُنحت درجات الدكتوراة في الإسلام للعلماء المسلمين، فليس من الضروري أن تكون ملتزمًا بالإسلام؛ لتكون إسلاميًا، بل يكفي أن تكون مؤهلًا في نظريات المستشرقين، وفي الحقيقة يُسأل طلاب الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية في الامتحان الشفوي حول نظريات المستشرقين، وليس على «الطلاب من أجل أن ينجحوا في الامتحان أن يعرفوا هذه النظريات، بل أن يقبلوها على أنها صحيحة جوهريًا»[1]، وقد أوجد مثل هذا التدريب، وهذا التفسير إسلامًا خاصًا بالمستشرقين يسير بموازاة الإسلام الحقيقي، وقد حقق الاستعماريون فوائد جمة من مثل هذا الإسلام «المتغرب»، واستهزؤوا بمفاهيم الأمة على أنها فكرة بعيدة المنال، وأشاروا إلى الجهاد على أنه «الحرب المقدسة» التي انتهت بنهاية الحروب الصليبية، وقد بلغ الأمر ببعض المستشرقين من أمثال: سنوك هورخرونيه الذي كان يعمل مستخدمًا عند الحكومة الهولندية إلى وضع الخطوط الإرشادية للحكم الاستعماري، وقد فصل هورخرونيه أهداف الاستشراق في خدمة الاستعمار تفصيلًا جيدًا؛ حيث رأى أنه «كلما كانت العلاقة بين أوربا والشرق المسلم حميمة، كلما كان ذلك أدعى لسقوط الدول الإسلامية في القبضة الأوروبية، ومما يهمنا نحن الأوروبيين أكثر أن نتعرف على الحياة الفكرية، والتشريع الديني، والخلفيات المفاهيمية للإسلام»[2]، وقد أجريت العديد من الدراسات، وكانت دوافعهم فيها بصفة عامة انعكاسًا لآراء هورخرونيه.

(1) H.Algar, «The problems of Qrientalists» in Islamic Literature, Vol.XVII, No. 2, 1971, p.35.

(2) E.W.Said, op. cit., p.256.

وفي مجال البعد السياسي للإسلام بصفة خاصة، فإنَّ «نظرة المستشرق للعلاقات الاستبدادية بين الحكام المسلمين، وشعوبهم لم تكن نابعة فقط من التجربة النصرانية للإسلام العدواني، ولكن الأهم من ذلك أنها نابعة من التقويم البرجوازي الأوروبي لما هو «إسلام تقدمي»، و«إسلام متطرف» مما يتطلب السيطرة المباشرة عليه من أجل الإمبراطورية، ونظرًا لأن الإمبرياليين حكموا شعوبًا إسلامية كبيرة، فقد كان لابد وأن يحاولوا تحسين وضعهم بين هذه الشعوب، وجعل حكمهم لها مشروعًا مستفيدين من مجادلات قدّمها المستشرقون في أن الحكم الإسلامي، (وفي المقابل الحكم الاستعماري إنساني)، وأن النظرة السياسية الإسلامية تعترف بشرعية الحاكم الفعلي كأمر واقع، وأن الحكم الاستعماري أفضل من الفساد، وعدم الكفاءة والفوضى التي كانت سائدة فيما قبل، وأن السيطرة السياسية في البلاد الإسلامية لا تتعرض للحديث عن تفاصيل الحياة الاجتماعية، والدينية الإسلامية، وبالتالي فليس ثمة ضرر أساسي على الإسلام بهزيمته مادامت تقاليده السياسية المركزية لم تُخالف[1]، وكانت الخدمة التي قدمتها هذه الاستنتاجات الاستشراقية هي تأكيد أيديولوجية الاستعمار.

وفي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهر عدد من المستشرقين الذين كتبوا في حياة النبي ﷺ، ومن أبرز هذه الإسهامات كتاب ميور (Muir): (حياة محمد) في أربعة مجلدات سنة ١٨٥٨م، وكتب سبرنجلر (Sprengler) كتابه المعنون: (Das Leben und Lehr de Muhammed›s) في ثلاثة مجلدات (١٨٦١م – ١٨٦٥م)، وكتب نولدكه (Noldake) سنة ١٨٦٣م كتابه بعنوان: (Das Leben Das Muhammed)، وكتب فلهاوزن (Welhausen): (محمد في المدينة) سنة ١٨٨٢م، وكتب كرل (Krel) سنة ١٨٨٤م كتاب: (Das Leben des Muhammed)، وكتب جريمه (Grimme): كتابه (محمد) في مجلدين (١٨٩٢م-١٨٩٥م)، وكتب بول (Buhl) سنة ١٩٠٣م: (حياة محمد)، وكتب مرجليوث (Margoliouth)

(1) T.Asad, Two European Images of Non-European Rule in T.Asad (ed.), Anthroe pology and the Colonial Encounter, London: Ithaca Press, 1975, p.117.

سنة ١٩٠٥م: (محمد وظهور الإسلام)، وكتب كايتياني (Caetani): (حوليات الإسلام) سنة ١٩٠٥م، وكتب تور اندريا سنة ١٩٣٦م: (محمد الرجل وعقيدته)، وكتب بلاشير (Blachere)؟: (مشكلة محمد) سنة ١٩٥٢م، وكتب مونتجمري وات: (محمد في مكة) سنة ١٩٥٣م، و(محمد في المدينة) سنة ١٩٥٦م، وقد ركزت معظم هذه الكتب على الموضوعات الشائعة في حياة الرسول ﷺ، وقد زعم بعضها أن (النبي) كان من أصل وضيع، وأنه يعاني من نوبات صرع، وشككوا في رسالته، وأنه تصرف كرسول في مكة، ورجل سياسة في المدينة، وأنه كان يُعبد من قِبل المسلمين كوثن، وأنه كان على علم بالإنجيل، وأنه حاول أن يشكل الإسلام بتقليد الأديان مثل اليهودية والنصرانية[1]، وكان هدف هذه الأعمال هو طمس شخصية الرسول محمد ﷺ، وأنه إذا ما تم لهم ذلك، فإن مصداقية النبي ﷺ ستفقد قيمتها؛ مثل هذه التعميمات التي لا برهان عليها كانت غالبًا مصدقة في الغرب، ومستخدمة من قبل المُنَصِّرين.

أظهر المستشرقون احتقارًا للآراء «الذاتية»، وتظاهروا بـ«الموضوعية»، ولكن بالرغم من هذا الادعاء الزائف، فإن تعصبهم عميق الجذور لم يبق مخفيًا، وممكن اكتشافه بسهولة في الأسئلة التي وجهها المستشرق في اختياره المنهجية المستخدمة في مثل هذه الدراسات، ولكن الموضوعية كانت أسطورة. يمكن للإنسان أن يكون موضوعيًا عندما يبحث في العلوم الطبيعية، ولكن هذا أمر غير ممكن عندما يتعلق الأمر بالدين والثقافة، إن كل الادعاءات المماثلة التي قدمها المستشرقون زائفة من الأساس[2].

وفي الغالب كان واضحًا تمامًا أن المستشرقين من خلال دراساتهم للقرآن كانوا مشغولين أساسًا بالبرهنة على كون الإسلام، إما أن يكون قد استعار أفكارًا، أو أنَّه تزييف للأفكار والعادات العربية المعروفة قبل الإسلام، أو أنه مأخوذ عن اليهودية

(1) M.Siddiqui, ‹The Holy Prophet and the Qrientalists› in Islamic Studies, Vol. XIX, No. 3, 1980, pp. 143-165.

(2) H.Algar, The Problems of Qrientalists, op. cit., p.32.



أو النصرانيـة، وقد علّق أحد الذين ترجموا معاني القرآن الكريم في القرن الثامن عشـر أن النبي «كان في الحقيقة مؤلفًا للقرآن ومخترعًا له، ولا يمكن للجدال حول هـذا الأمر مطلقًا»[1]، وقد اعتنق هذا الافتراض عدد مـن المستشرقين، ولأسباب مختلفـة، فقد عـدّه البعض أنه «مجرد اختـلاق صرف وتلفيق»، وأنـه كان «شعلة عبقرية»، و«انعكاسًا لطاقته»[2].

ورأى آخـرون مثـل ستوبـارت (Stobart) أن النبي ﷺ امتلك «نـارًا شاعرية وخيـالا»، وأكد هـذه الآراء، بل (Bell)، وروديسـون (Rodinson) الذين نظرا إلى القـرآن على أنه قصيدة صدرت عن لا شعور النبي[3]، وكان بعض المستشرقين غير مقتنـع بهذه الأسباب، وافترض بأن القرآن كان «نتيجة التفكير الرغبي» الذي عبَّر عنه بالعقل اللاشعوري[4]، بينما كان آخرون أكثر هدوءًا من أمثال مونتجمري وات الـذي اعتقد أن محمـدًا ﷺ ربما كان مخطئًا في أنّه «بدا له مـا يأتي الإنسان من خـارج نفسه قـد يكون مصدره «اللاوعـي»، وهكذا فيكون القـرآن «نتيجة الخيال المبـدع»[5]. وطـرح عبد اللطيف طيباوي – رحمـه الله – الأسئلة المناسبة لدحض مجادلات المستشرقين، فكان مما قاله: «لنفترض جدلاً بأن القرآن من إنشاء محمد ﷺ، فكيـف يمكن لدارس التاريخ أن يبرهن على استعارته من المصادر السابقة؟! ومـازال المستشرقـون غير قادرين علـى البرهنة على ذلك إلا بطريقـة التخمين أو التنبؤ، فكيف يستطيع المستشرقون أن يعطوا قيمة أكاديمية لأعمالهم؟!»[6].

---

(1) G.Sale, The Koran, London: Frederick Warne, 1899.

(2) F.J.I. Menezes, The life and Religion of Mohammed, the Prophet of Arabia. Sands, London, 1911.

(3) J.W.Stobard, Islam and its Founder. London: SPCK, 1876, p. 108 Also see: R. Bell, The Origin of Islam in its Christian Environment. London: Macmillan, 1926. Also see: M.Rodinson Muhammad. Harmondsworth: Penguin Books, 1977.

(4) J.N.Anderson (ed). The World Religions. London: Frank Cass, 1965, p.56.

(5) M.Watt, Muhammad: Prophet and Statesman, Oxford University Press, 1961, p.15.

(6) A.L.Tibawi, English Speaking Orientalists. London: Islamic Culture Centre, 1964, pp. 10-11.




ولكـن القرآن لا يزال محيرًا لكثير من المستشرقـين الذين اعتقدوا أنه لا يمكن لأي مخيلـة مبدعـة أن تنتـج مثل هذا العمـل، وبات كثـير منهم مقتنعًـا بأنه كُتب بمساعـدة المصـادر اليهودية والنصرانيـة، وقد جادلوا بأن النبـي ﷺ كان رجلًا كثـير الأسفار منذ أيام شبابه عندمـا كان معتادًا على الذهاب في رحلات مع عمه، واعتقدوا أنه قابل بعض القساوسة والرهبان في هذه الرحلات بينما اعتقد البعض أنـه قابل رهبانًـا وقساوسة في مكة، بينمـا اعتقد البعض أنه قابـل نصرانيًا تحول إلى الإسـلام [1]، وجادلوا أنه لابد قد تعلّم مبادئ اليهودية من أستاذ غير معروف؛ وذلـك لأن «الرواية الطويلة، والمشتتة للأنبياء، والرسل اليهود (في القرآن) تتوافق في كثـير من التفاصيل مع التلمود، وليس ثمة شك في أصلها اليهودي» [2]، وحتى أن البعضـ اعتقد بـأن القرآن قد وُضع من قِبَل اليهـود والنصارى «استخدموا بصفة خاصـة لهذا الهدف .. من أجل تلبية طلبات الجمهـور» [3]، وثمة تأكيد أكثر سخفًا بأن النبي كان خاضعًا لسيطرة الأرواح الشريرة، وأن القرآن تعبير عن هذه الأرواح [4]، والملاحظـة الجديرة بالاهتمـام هي أن المستشرقين لم يكونـوا مستعدين مهما كان الثمن للاعتقاد بأن محمدًا ﷺ كان رسولًا، وأن القرآن وحي، وفي الوقت نفسه كانوا يقبلون بأنه ثمة إله، وأن موسى وعيسى رسولان من الله.

ولم يكـن للحديث الشريـف مكانة أفضل لدى المستشرقـين، فقد تعرض لأقوال وآراء خطـيرة حيـث حـاول المستشرقون أن يبرهنـوا أن الحديـث الشريف كله قد استُنبِـطَ بطريقـة عشوائيـة متأثرًا بالتاريـخ، وأنه أُلِّـف بدون عنايـة، وقد أثارت الدراسـات التـي قام بهـا كل من جولدزيهر وجـوزف شاخت في هـذا المجال عددًا مـن الشكوك حـول مصداقية الحديث [5]، وقد زاد المستشرقـون في توضيح مسألة

(1) Muhammad Khalifa, The Sublime Qur›an and Orientalism. London: Longman Group ltd. 1983, p.14.

(2) J.N.Anderson, op. cit., p.57.

(3) M.Khalifa, op. cit, p.10.

(4) Ibid,p.12.

(5) See: M.M.Azmi, Studies in Early Hadith Literature. Indiana: American Trust Publications, 1978.



دونيــة المسلمين وفوقية الغرب من خلال دراساتهــم، بالإضافة إلى ذلك فقد عُدَّت الحضــارة الإسلامية متفسخة بينما الحضارة الغربية حيوية، وبالتالي فالاستعمار يعــدُّ أمرًا معقولاً من أجل «تحضير» هذه الشعــوب ومؤسساتها، ولقد أصاب ألبرت حــوراني في قوله: «إن هناك اتجاهًا للنظر في التاريخ الإسلامي بلغة ظهر وانحدر، محمد يــزرع بذرة تصل إلى منتهى نموها في أوائل الدولــة العباسية، وتنحدر فيما بعــد مع الجمود الثقافي، وتستيقظ في القرن التاسع عشر بتأثير الحضارة الغربية، وبنشــاط الروح القوميــة»[1]، ومن أجل علمنة النظــام الاجتماعي الإسلامي اهتم المستشرقــون اهتمامًا خاصًا باستبدال النظام الغربــي بالنظام الإسلامي، ولذلك بــدأت حملــة انتقادية للنظــام الإسلامي من أجــل إضعاف الثقة بــه، فركزوا على الحديــث والرأي مبرزين المشكلات التي ظهــرت بين الفقهاء المسلمين خلال القرن الثــاني، ولكــن ظهر جيل جديــد من المختصــين بالشريعــة الإسلامية، ومــن أبرز الأسمــاء في هــذا الحقل: اجناز جولدزيهر، ود. أســ. مرجليوث، وجوسف شاخت، وان.جي. كولسن. (Culson).

ادعى جولدزيهر في كتاباته أن العمل الإسلامي لم ينشأ في حياة النبي ﷺ، ولكنه ظهر على مراحل بعد وفاته. وكان عنوان دراسات جولدزيهر (دراسات محمدية)، وكان ناقــدًا للكتابات الحديثة قائلًا: بــأن اسم الرسول ﷺ كان يُستحضر لإعطاء شرعيــة، وقد عمل على وضع بعض القواعد؛ لإضعاف موثوقية الشريعة الإسلامية. أمــا مارجليوث فقد ذهب إلى أبعد مــن هذا في كتابه: (تطور المحمَّدية) حيث قال: بــأن النبي لم يترك سُنَّــة، ولا حديثًا، وأن السُّنَّة قد أُلِّفت مــن العادات العربية قبل الإسلام التي تم تعديلها بالقــرآن، وأضاف هنري لامانس (Henri Lammmens) مؤكدًا للفكرة القائلة بأن السُّنَّة لابد أن تكون قد سبقت الحديث في التكون، ورفض شاخت في كتابه الموسوم (أصول التشريعة المحمدية) الاعتراف بموثوقية أي حديث، وزعــم أن «كل حديث مــن أحاديث الأحكام يجب للنظر إليــه على أنه تعبير خيالي

(1) Albert Hourani, Europe and the Middle East. London: The Macmillan Press, 1980, pp. 18-20.

للتعاليم التي تكونت في زمن متأخر ما لم يثبت العكس»[1]، واختلف كولسن مع شاخت، ولكن إسهاماته لم تخالف الدراسات الاستشراقية بالرغم من نزوعه إلى الشك في بعض النواحي، إن كل ما حاول المستشرقون أن يفعلوه هو إثارة الشكوك حول موثوقية المصادر الإسلامية حتى لا يلتزم المسلمون بالشريعة.

ويتراجع الاستعمار في الشرق الأوسط بالنزول عن عليائه، وذلك لسبب بسيط واضح هو أن القوى الاستعمارية لم تعد في حاجة إليه، ومع ذلك فإن نفوذه لم ينقص، فقد ظهرت الإمبريالية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية بصفتها القوة الجديدة في الشرق الأوسط، وكانت كتابات المستشرقين الجدد مؤثرة في الجيل الجديد من المختصين في الدراسات الإسلامية، وقد عالجنا هذا الموضوع في قسم مستقل، والمهم أن نلاحظ هنا أن بعض المستشرقين تأقلموا سريعًا مع البرامج الجديدة مثل الدراسات الإقليمية التي أنشأها المختصون الجدد، وبالتالي استمروا في المحافظة على تأثيرهم وسيطرتهم على الجيل الجديد من هؤلاء المختصين.

فمن هؤلاء المستشرقين هاملتون جب الذي ترأس مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفرد (Harverd) الأمريكية بينما انتقل آخرون مثل جوستاف فون جرونباوم (Gustav von Grunebaum) إلى كاليفورنيا، شجع هاملتون جب الدراسات الإقليمية بإبراز أربعة مهام لها هي الآتية:

١. تقديم المعرفة للطلاب في المرحلة الجامعية.
٢. تدريب الطلاب في الدراسات العليا على فهم علمي للعوامل الثقافية المعقدة.
٣. ضرورة إتباع الأسلوب متعدد الثقافات.
٤. التنسيق بين العلوم المتعددة في منطقة معينة، وإثارة اهتمام مجالات الدراسة هذه؛ لأنه في العالم الحديث الذي تزداد العلاقات قُربًا، والحاجة

(1) Quoted in A.Siddiqui, «Early History of Islamic Law: An Analysis of Western Scholarship, in Journal of Social Scienes and Humanitles (Karachi), 1985, Nos. 1-2. p.85.



مُلحّة على الرجل الغربي للعيش والاتصال بأناس من مجتمعات، وتقاليد غير غربية، ولهذا فقد أصبح من الضروري تشجيع التعاون مع علماء الاجتماع في إطار مهمة تفسير تركيبة المجتمعات الآسيوية والأفريقية المعاصرة، ودوافعها، كما أن موضوعات الاقتصاد مسألة خطيرة لا يمكن تركها لعلماء الاقتصاد، ونحن يجب أن نعترف مهما كانت السلبيات، فإن الشرق مهم جدًا، بحيث لا يمكن تركه للمستشرقين»[1]، كما كان من الممكن أن يذوي نجم المستشرق جب، وآخرون من جيله، ولكنهم كان لديهم الكفاية من بعد النظر؛ ليضعوا قواعد دراسات الشرق الأوسط، وقد جذب علماء الاجتماع وعلماء السياسة، ومهما يكن فإن الأفكار الخاطئة، وسوء الفهم واضحان في دراستهم للإسلام بشكل عام وللشرق الأوسط.

وبالرغم من ادعاء الموضوعية، فإن هذه الدراسات ما تزال تعكس المنهج المبني على مركزية الغرب، والتي شوهت سياق الواقع، وفشلت في فهم وجهة نظر أهل البلاد موضع الدراسة، والنتيجة الطبيعية أن العديد من الدراسات قد شملت الحقائق السياسية، والاقتصادية للبيئة باستخدام الأيديولوجية الغربية، وفي الحقيقة: «إن مستشرق اليوم الذي يكتب عن الإسلام يصب العداء الصريح الذي كان يحمله المنصر في القرن التاسع عشر، والذي نظر إلى الإسلام على أنه دين وثني لا يستحق الاحترام، لقد تم تكريس التسامح والتفاهم بين الثقافات في الدراسات الإسلامية تمشيًا مع الوفاق، وتجنب الخلاف الذي ميَّز تصرفات الولايات المتحدة في مغامراتها الأولى في الشرق الأوسط، وتحت هذا التظاهر الكاذب بالفهم، فإن معظم المستشرقين ينظرون أساسًا إلى الإسلام على أنه دين متخلف تمامًا، كما هو الحال بالنسبة للشرق الأوسط»[2]، إن المسار الفكري للمستشرقين لم يتغير، ومازال يواصل بعناد وحزم، ويعمل بالطريقة نفسها، وتحت مسميات جديدة.

(1) Lyne Barbec, et. Al., Midle East Studies Network, Meerip Report no. 38, Washh ington DC, 1975, pp. 6-7.

(2) Ibid,p.19.

إن القوى المشتركة للمستشرقين القدامى، والمختصين الجدد لم تهدم أي أساس جديد ذلك أن الدراسات التي أنتجها الأخيرون مازالت «مطبوعة بمبادئ الاستشراق»، والتي يمكن ملاحظتها في الآتي:

١. ثمة اختلاف مطلق ومنتظم بين الغرب القومي والمتطور والإنساني والمتفوق، وبين الشرق الضال والمتخلف والوضيع.
٢. النظرة التجريدية للشرق .. فهو دائمًا مفضّل على الأدلة المباشرة المأخوذة من الدراسات الاستشراقية الحديثة.
٣. النظر إلى أن الشرق أبدي ومتماثل وغير قادر على تعريف نفسه، ولذلك فإن استخدام عبارات عمومية جدًا، ومنتظمة لوصف الشرق من وجهة النظر الغربية أمر حتمي، وحتى إنه من الناحية العلمية موضوعي.
٤. الشرق في الحضيض، فإما أن يُخْشى .. أو أن يسيطر عليه»[1].

هذه المبادئ جعلت دراسة المستشرقين للإسلام علمًا فريدًا، وكما يقول أون (Owen): «كانت مسألة الدراسات الإسلامية دائمًا غامضة لأولئك الخارجين عنها. لقد تقمص المستشرقون بسبب معرفتهم الأساسية لعدد من اللغات الصعبة، وتركيزهم على فحص التطور التاريخي لدين معقد شخصية الطقوس الغامضة التي لا يمكن أن يشارك فيها إلا فئة قليلة مدربة تدريبًا كافيًا، وقد تصرفوا غالبًا وفقًا لقوانينهم التي يغلب عليها طابع السرية، فكل مطبوعة تذكير لبق للشخص غير المكرس بأنَّ دوره هو أن يستمع، وأن يتعجب، ولكن لا يسأل أبدًا، أو يقترح بوجود طريقة بديلة لأداء هذه الطقوس»[2]، ولكن هذا الفرع المعرفي أجبر على الخضوع؛ لتغيرات بسبب الأسلوب الواقعي، وضرورات الأوضاع في العالم العربي الناشئة عن الوجود الأمريكي.

وقد ظهرت في العقود الأخيرة القليلة أفكار وصور عديدة من خلال كتابات

(1) Edward Said, Orietalism. Op. cit, pp. 300-301.
(2) Roger Owen, «Review of the Cambridge History of Islam,in Journal of Interdisciplinary History, Vol. 4, No. 2, Autumn 1973, p.287.



المستشرقين والمُنصِّرين، وثمة تصنيف من خمسة أقسام قدمه المستشرق واردنبرج (Waardenburg)، وهو كالآتي[1]:

أولاً: رسم المُنصِّرين من أمثال هـ. كريمر (H.Kraemer)، واس.ام. زويمر (Zwemer) صورة ثابتة للإسلام باستخدام نظام القيم السلبي الذي يعدُّ مضادًّا للقيم الاجتماعية، والثقافية، والدينية التي يتمسكون هم بها، وكذلك العالم الغربي.

ثانيًا: يعدُّ الإسلام صنفًا من الدين، وحضارة بين الحضارات في العالم، وقد دعا مستشرقون من أمثال سي.هـ. بيكر. (C.H.Becker)، وجي أي فون جرونباوم إلى فكرة مفادها أن الإسلام جامد، وغير قابل للتغيير، وهنا أيضًا ثمة فكرة ثابتة عن الإسلام.

ثالثًا: إن كُتَّابًا من أمثال هاملتون جب، ودنكن ماكدونالد (Duncan Mac Donald) تخيّلوا صورة إجمالية، لا تحدث فقط عندما تفحص الحقائق، وتشرح في سياقها الزمني، وارتباطاتها العلية والبنائية، ولكن عندما تُصنَّف في كليتها تحت المفهوم الإجمالي للإسلام حتى استخدم هذا ككيان افتراضي»[2].

رابعًا: لقد نُظر إلى الإسلام في إطار صورة مثالية من بعض المستشرقين من أمثال المستشرق أي.جي. آربري (A.J.Arbery)، وال. ماسنيون. مثل هذا الإسلام الموضوع في القالب المثالي يُرى على أنَّه يتصف بقيمة إيجابية دقيقة معينة، وسوف يشير إليها المختصون بالإسلام، ويربط ما يعده قيمًا لأفكار إسلامية معينة، وحقائق أو أحداث، فإن المختص بالإسلام سيصل إلى تقويم للإسلام على أساس هذه القيم[3].

خامسًا: لقد صُوِّر الإسلام في صورة مرنة «بحيث لا يعود الإسلام فيها نظرة

(1) Jacause Waardenburg, Changes of Perspective in Islamic Studies over the Last Decades. Humaniora Islamical, 1973, pp.247-260.

(2) Ibid,p.250.

(3) Ibid,p.250.

عامـة للمجموع الكلـي للحقائق، ولكنه يجزأ إلى عدد مـن النظرات المعينة والأكثر اقتصـارًا، فالصـورة المرنة للإسلام يمكـن أن يقال: إنها أصبحـت مسيطرة على النقـاط الأربـع التي ذكرت في تحديـد مفهوم الإسـلام، وهذا يتعلـق بالاستخدام المستمـر للدراسـات الواقعيـة في موضوعـات محددة مـن خلال سيـاق تاريخي أو اجتماعي جامد، وهذا مع الحد الأدنى من التعميمات والتقويمات»[١].

لقـد أجريـت العديـد مـن الدراسات حـول التاريـخ الحديث والمعاصـر للعالم الإسلامـي قام بهـا ألبرت حوراني وام. كـر (M.Kerr)، ودبليو. سي. سميث، وقد ركز آخرون من أمثال: جي. بيرك (J.Berque)، وهـ. باون (H.Bowen)، وهاملتون جـب واي. لابيدوس (I.Lapidus)، وماكسيـم رودنسـون (M.Rodenson)؛ ركز هـؤلاء على التاريخ الاجتماعي للمجتمعات المسلمة. وثمـة علماء آخرون من أمثال: آربـري وهـ. كوربين (H.Corbin)، ولوي جارديـه (L.Gardet)، وهـ.هنري لاوست (H.Laoust)، وان. روزنثـال (N.Rosenthal)، وجي. شاخت (J.Schacht)، وآر. والـزر (R.Walzer)، وهـ. أي. ولفسـون (H.A.Wolfson)، وهـؤلاء ركـزوا على جوانب مـن الفكر الإسلامي والتاريـخ: الفقه وعلم الـكلام، والفلسفة والتصوف. وأخـيرًا نجـد أمثـال: أي آبـل (A.Abel)، ودبليـو. فخـت (W.Fischt)، وأس. دي. جويـتن (S.D.Goitein)، وام. بيرلـان (M.Perlman)، ودبليـو. سويتمـان (W.Sweetman) حيـث قـام هـؤلاء بدراسـات مقارنـة مـع المجتمعـات الدينية الأخـرى، وقد انبثقت كل هذه الكتابـات من المصالح الخاصة بالعالم الغربي، وكما ذكـر واردنبجر: «ظلت الدراسات الإسلامية لمـدة طويلة مشروعًا أوروبيًا لا ترتبط فقط بكتابات أدبية نقديـة، ودراسات تاريخية، وبخاصة في الدراسات الكلاسيكية والإنجيليـة، ولكـن ترتبط بالحقيقة التـي مفادها أن ثمة مواجهـة في تاريخ معظم الدول الأوروبية مـع الشعب الإسلامي على الأرض الأوروبية، أو في البحر المتوسط، أو في مستعمراتها»[٢].

(1) Ibid,p.51.
(2) Ibid., p. 259.



حاول بعض المستشرقين من أمثال كوربن أن ينشروا لهيب العلمانية[1]، ولكن أعماله لم تقدم أي جديد، وبحسب تعبير عالم إسلامي، فإن كتابات كوربن تضمنت «تشويهًا خطيرًا لكل من الإسلام السنّي والشيعي»[2]، فقد كتب كوربن عما أسماه «الإسلام الإيراني» بهدف إيجاد انقسام زائف بين العرب والإيرانيين، كانت كتاباته مفيدة للحكام العلمانيين مثل محمد رضا بهلوي الذي أراد أن يفصل بين الحضارة الإيرانية والإسلام في التاريخ الإيراني، وبالإضافة إلى ذلك كانت ادعاءات كوربن حول الرابطة المتصلة بين إيران ما قبل الإسلام، وإيران الإسلامية مساعدة لبهلوي الذي كانت تتلخص في تقديم فكرة اتصال سلسلة الحكم الملكي إلى ألفين وخمسمائة سنة ماضية، وذلك ليجد مبررًا شرعيًا لعرشه من مصادر ما قبل الإسلام، وليس من الإسلام، ويوضح هذا العرض لرؤية كوربن للإسلام كيف يراد فصل الدين عن السياسة؟ وليس مدهشًا أن يلحظ الغار «مدى التفاوت بين الإسلام وفقًا لوصف المستشرق والإسلام الذي يعرفه المسلمون من العقيدة، والتجربة، والممارسة حتى ليبدوان ظاهرتين متضادتين، أو حتى لا علاقة بينهما»[3].

الاستنتاج:

كان الاستشراق خطة استعمارية لإيجاد فرع معرفي جديد لتفسير الإسلام، فإذا أمكن من خلال هذا التفسير إثارة الشكوك، وزيادة درجة القضايا الجدلية في عقول المسلمين، فعندئذ لن تضعف هذه التقسيمات من الالتزام بالإسلام فحسب، ولكنها ستجعل المستعمر قادرًا على السيطرة على البلاد الإسلامية دون خوف من تهديد الإسلام، وبالرغم من أن معظم المستشرقين قد هلكوا منذ مدة إلا أن تلاميذهم يواصلون التقليد الاستشراقي من خلال أقسام الدراسات الإسلامية العديدة في المعاهد الغربية، وثمة انسجام وتوافق بين عملي المستعمر والمستشرق

(1) Hamid Algar, The Study of Islam, the work of Henry Corbin in. Religious Studies Review, Vol. 6, No. 2, April 1980. Most of the discussion on Corbin is from Algar›s excellent analysis.

(2) Ibid., p. 87.

(3) Ibid., p. 85.

في البــلاد الإسلامية، فــالأول: غيّر تركيبــة المجتمعات الإسلامية بإبــدال النظام السياســي بنمــاذج علمانيــة تتكون من النظريــات الغربية من مثــل الديمقراطية، والقوميــة، والأحزاب السياسيــة، والانتخابات، وكذلك أدخــل المستعمرون الأنظمة القانونيــة العلمانية لتحل محل الشريعة بينما يجب أن نعلم بأن المستشرقين تمكنوا من تقويض الإسلام من الداخل بإثارة الشكوك حوله.



الفصل الرابع



المُنَصَّرون والحضارة

أضافت حقبة الاستعمار مجالات جديدة من العداوة بين النصارى والمسلمين، فالنصارى الذين فقدوا الأمل في السيطرة على المسلمين، رفعوا رؤوسهم مرة أخرى خلال الحكم الاستعماري في البلاد الإسلامية، وبدأ المنصّرون يتدفقون على البلاد المستعمرة، وأسسوا إرسالياتهم بهدف تحويل المسلمين إلى النصرانية، وتتمثل خطة هذا الفصل في تقديم موجز عام لنشاطات البعثات التنصيرية، ومناقشة كتابات مختارة لاثنين من المنصرين لإعطاء القارئ فكرة عن كيفية تشويه مثل هؤلاء المنصرين للإسلام، وأنهم يقدمون بذلك خدمة للاستعمار على المدى البعيد.

كان سقوط القسطنطينية (اسطنبول حاليًا) سنة ١٤٥٣م، في يد الأتراك حدثًا لم ينسه الغرب مطلقًا[1]، ويتخيل المنصرون الآن تنصير آسيا الصغرى كلها، فقد بعث المجلس الأمريكي لمفوضي البعثات الخارجية بعثات إلى تركيا منذ العشرينات من القرن التاسع عشر، وتم تأسيس أول كنيسة نصرانية سنة ١٨٤٧م، واستغل تغيير بعض الأرمن معتقداتهم مرتكزًا للبعثات التنصيرية، وبرز نشاط العديد من الطوائف البروتستانتية مثل الإنجليكان، والبنتكوستال، والبابتست الجنوبية، والسبتيون، كما برز من الكاثوليك الأرمن، والكلدانيون، والملكانيون، ونشطت كذلك الكنائس السورية حيث برزت حركات الأرثوذكس اليونانيين، وبطريركية أنطاكيا، والكنائس السورية الأرثوذكسية، وموورست النشاطات التنصيرية بطرق متعددة من خلال المعاهد التربوية، والمستشفيات والملاجئ والإذاعة... الخ، ولكن بالرغم من كل تلك الجهود لم يجاوز عدد النصارى نسبة ١٪ من سكان تركيا «فالإسلام .. هو أعظم عائق للنصرانية في تركيا»[2]، وبالرغم من قيام مصطفى كمال بعلمنة تركيا إلى حد ما، لكن ذلك لم يمنع الحجاج من السفر لأداء فريضة الحج، أو من

---

(١) عقدت جامعة لندن (مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية) ندوة عام ١٩٥٢م بالاشتراك مع السفارة اليونانية بمناسبة مرور خمسمائة سنة على سقوط القسطنطينية.

(2) D.M.McCurry (ed). World Christianity: Middle East, Montavia, CA: Missions Advanced Research Communications Center, 1979, p.114.



تشكيـل الأحزاب السياسية الإسلاميــة، ولكن الحقيقة الباقية أنه بالرغم من فشل البعثات التنصيرية إلا أنها حاولت أن تكدر مشاعر الشعب.

ويعود تاريخ التنصــير في البلاد الأخرى كمنطقة الخليج، وسوريا، والعراق إلى القــرن التاسع عشــر: ففي سوريا يبلغ عــدد النصارى عشــرة في المائة من مجموع السكان، هذا القطاع النصراني قديم جدًا، ويعود إلى سنة ١٠٥٤م، عندما انفصل اليونانيــون الشرقيــون عــن روما، وفي القــرن الثالث عشــر سقطت حلــب في أيدي الصليبيــين، وكانت البعثــات الفرنسية -وفيما بعــد الأمريكية أيضًــا- نشطة جدًا في هــذا البلد. أما حاليًا فإن هذه البعثات توزع الكتابــات الإنجيلية، وتدير المعاهد التعليميــة، وتبث برامج إذاعية من راديو (Elwa) (ليبريا)، وراديو صوت الإنجيل مــن لبنان وقبرص، ورابطة إذاعات الشــرق الأقصى من (سيشــل)، وراديو حول العــالم (موناكــو)، ويكوّن الأرمــن، واليونانيون، والأرثوذكــس السوريون مجتمعات كبــيرة، ويأتــي بعدهــم الكاثوليــك والبروتستانــت، ومــن الهيئــات البروتستانتية النشطــة جدًا، البعثة النصرانية الحمراء (Christian Red Mission)، والتحالف الوطنــي للدعــوة النصرانيــة (National Evangeical Christian Alliance)، والكنيسة التنصيرية الأرمنيــة، والمجلس الوطني للدعوة للنصرانية لسوريا ولبنان (National Evangeical Christian Synod of Syria and Lebanon).

واستمر عمل الفرنسيسكان، والبطريركية اللاتينية في الأردن منذ عام ١٨٤٧م، وثمة تمثيل لكل من الكاثوليك والبروتستانت، ولم يبدأ الأخيرون عملهم في هذا البلد إلا في هذا القرن، ويمثل النصارى عشرة في المائة من عدد السكان، وهم مستمرون في عملهم التنصيري من خلال توزيع «الكتاب المقدس»، والتعليم، والإذاعة.

وبالرغــم مــن أن البعثــات التنصيريــة وجدت في العــراق حول نهــر دجلة منذ سنــة ١٠٠م إلا أن العمــل التنصــيري المنظم لم يبــدأ إلا في الأربعينــات من القرن التاســع عشــر حيث بدأه البروتستانــت، وكان أكثر المنصرين شهــرة جون فان اس (John Van Ess) الــذي أرســل مــن قبــل الكنيســة الإصلاحيــة الأمريكيــة سنة ١٩٠٢م (Reformed church of America)، وكانــت العــراق -حينئــذ- جــزءًا



مـن (الإمبراطوريـة) العثمانيـة، لقد أقام فـان اس علاقاته الحميمـة مع كل من البريطانيين والعراقيين، ونال تقديرًا كبيرًا لمهارته في التعامل مع الرسميين الأتراك، وفتح مدرسة فيما بعد في البصرة، وكانت بداية لتوسيع النشاط التنصيري فيها.

وقـد استطـاع البريطانيـون بالتعاون مع فـان اس تحويل العراقيـين إلى أعداء (للإمبراطوريـة) العثمانيـة، وظهـر تأثـير فـان. اسـ في العراقيـين في مسئولين عراقيين من أمثال نوري السعيد الذي كان يعمل حينئذ في الجيش، وأصبح فيما بعد رئيسًا للـوزراء، وكان مكتب فان. اس. مكانًا لاجتمـاع الضباط والمشايخ العراقيين الذيـن كانوا يرفضون الحكم التركي، ونجح فان. اس من خلال العلاقة السرية أن يصـدر بيانًا مع هـؤلاء لتأييد الحلفاء ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى، وعدَّه الأمريكيـون مفيـدًا للغاية حتى إنّهـم عيّنوه قنصلًا لهم في البصـرة سنة ١٩١٤م، وحينمـا أصبحـت العراق فيما بعد تحـت الوصاية البريطانية تعـاون فان. اس. مع البريطانيين؛ لدعم قوتهم في العراق.

وكمـا يبـدو لم يكـن هـؤلاء الرجال مجـرد منصِّريـن، بل كانـوا أيضًـا وكلاء للاستعمار، وبصفتهم هذه قاموا بنشر الأفكار القومية، ونظرًا لعداوتهم للإسلام، فقـد حاولوا أن يشوِّهـوا مبادئه، وقد استخدم فان. اسـ. في كتابه: (لقاء العرب) (Meet the Arab) عبـارات مـن أمثـال: «لـو كان محمـد رسولًا كمـا يؤكد بعض المؤرخين...»[1]، ومنع الكتاب في إيران لفترة من الزمن، وعند وفاته سنة ١٩٤٩م، كان فـان. اس – المنصر – يعمـل في وزارة الخارجية الأمريكية مستشارًا في شئون الشرق الأدنى.

وواصل خلفاء فان اس التقاليد التي ابتدعها علمًا بأنه لم يقتصر على النشاطات التنصيرية فقط، وكان لابد لهذا العمل من التوقف عندما طردت الحكومة العراقية كل المنصريـن سنة ١٩٦٩م، واستمر العمل التنصيري من خلال البعثات الفرنسية

(1) H.J.Bergman, ‹The Diplomatic Missionary: John Van Ess in Iraq›. In The Muslim World, Vol. LXXII, Nos. 3-4 (July-October, 1982), p. 192.



والإيطالية تحت ستار الفنون الأدبية بتوزيع الكتابات التنصيرية، وإدارة المعاهد التعليمية، وبث البرامج الدينية[1].

وتعود الروابط النصرانية مع إيران إلى ظهور الدولة الساسانية سنة ٢٢٦م، ففي عام ٣٢٣م، أشاد الإمبراطور قسطنطين بالملك الفارسي شاهبور الثاني على معاملة النصارى معاملة جيدة، وتسامح بعض خلفاء شاهبور مثل أردشير الثاني، وشهبور الثالث، وبهرام الرابع مع النصارى بينما عاملهم آخرون مثل يزدجرد الأول معاملة حسنة، وكان ثمة معارضة للنصرانية في إيران من قبل رجال الدين الزرادشتيين الذين استنكروا نشاطاتهم التنصيرية، وبفتح العرب لبلاد فارس انضوت النصرانية تحت لواء الحكم الإسلامي، وتغيرت «الفكرة التي مفادها: لكي تكون فارسيًا يجب أن تكون زرادشتيًا، واستبدلت بالعبارة القائلة: أن تكون فارسيًا يجب أن تكون مسلمًا، وهكذا لم يبق مكان للنصرانية الفارسية»[2]، ولكن هذا لم يمنع النصارى من نشاطاتهم التنصيرية التي ازدادت عندما غزا المغول بلاد فارس، فقد أيَّد النصارى المغول ضد المسلمين، وبذلك أصبحوا «المجموعة المفضلة في إيران، وأصبح المسلمون الغالبية المضطهدة»[3]، وكان سلوك النصارى تجاه المسلمين قاسيًا، ومتكبرًا حتى إنهم «شربوا الخمر علانية خلال شهر الصوم وسكبوا الخمر على ملابس المسلمين، وفي مساجدهم، وسارت مواكبهم في الشوارع

---

(١) لمعرفة مزيد من التفاصيل حول النشاط التنصيري في العالم العربي تراجع الكتب الآتية:
١. مصطفى خالد وعمر فروخ. التبشير والاستعمار في البلاد العربية. بيروت وصيدا: المكتبة العصرية، ط٥ (١٩٧٣م).
٢. إبراهيم عكاشة علي. ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي. الرياض: إدارة الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).
٣. عبد المالك خلف التميمي. التبشير في منطقة الخليج العربي. قبرص: دار الشباب والكويت: مؤسسة الكميل، ط٢ (١٩٨٨م).
٤. هـ. كونوي زيتلر. أصول التنصير في الخليج العربي. ترجمة مازن مطبقاني: المدينة المنورة: مكتبة ابن القيم (١٤١٠هـ-١٩٨٩م) (المترجم).

(2) R.E.Waterfield, Christians in Peria. London: George Allen and Unwin, 1973, p. 37.

(3) Ibid., p. 49.

تحمل الصليب، وأمروا أصحاب الحوانيت أن يقوموا عند مرور الموكب، وعاملوا الذين لا يقومون معاملة قاسية»[١].

وكان من نتائج التآمر النصراني مع ملوك المغول أن اتخذ أباكا ولد هولاكو زوجة نصرانية، وهي ابنة الإمبراطور البيزنطي، وبالرغم من هذا التآمر إلا أن المنصِّرين فشلوا في كسب المغول إلى دينهم، وعندما أسلم الحاكم المغولي قازان خان (١٢٩٥م-١٣٠٤م)، وكان ذلك سنة ١٢٩٥م؛ حيث كان إسلامه «الضربة النهائية والحاسمة لآمال الكنيسة الفارسية»[٢]، ووقع خليفة قازان معاهدة صداقة مع مصر، «وكان التضامن الإسلامي في النهاية واضحًا للجميع»[٣]، وتقلصت طموحات البعثات النصرانية في إيران، وقد وفد إلى بلاط شاه عباس (١٥٨٧م-١٦٢٩م) بعض القساوسة اليسوعيين، وفي سنة ١٦٠٤م أرسل البابا مندوبًا إلى إيران لتأسيس بعثة كرملية[٤]، وكتب المندوب البابوي بول سايمون (Paul Simon) إلى البابا قائلًا: «إن الملك الفارسي قوي جدًا، ولم يعد في حاجة إلى الأمراء النصارى لمساعدته»[٥]، وقد أصبحت بعض هذه البعثات على صلة وثيقة مع الشاه لدرجة أنه بعث أحدهم، وهو: جون ثاديوس (John Thaddeus) سفيرًا إلى قيصر روسيا سنة ١٦١١م، ولكن الروس اعتقلوه على أنه جاسوس فارسي، وبعد تدخل شاه عباس أطلق سراحه واستقر في أصفهان، ومكث الكرمليون مائة وخمسين سنة ينعمون بضيافة السلاطين، وزار إيران سنة ١٦٢٨م منصرون فرنسيون من طائفة الكبوشي من الفرير (Frair)، وعُيِّن الأب جون ثادوس في سنة ١٦٢٢م أسقفًا على أصفهان من قبل البابا، ولكن شاه عباس أصدر مرسومًا سنة ١٦٢٩م – قبل وفاته – يقضي بأن أي نصراني يدخل الإسلام يصبح من حقه أن يرث كل أملاك أقاربه حتى الجيل السابع، وبذلك دخل ألوف من النصارى في

(1) Ibid., p. 50.
(2) Ibid., p. 52.
(3) Ibid., p. 52.
(4) Ibid., p. 52.
(5) Ibid., p. 65.



الإسلام مفسدين عمل الكرمليين، وسمح للمنصرين الكاثوليك أن يؤدوا عملهم دونما عوائق، وقد كان المنصرون البروتستانت قد بدأوا نشاطهم في منتصف القرن الثامن عشر، وقد جاءت إلى إيران بعثات متعددة من ألمانيا من الإخوة المتحدين، أو الطائفة الموراڤية (Moravian).

وأرسل الإنجليز منصّرين مثل هنري مارتين (Henry Martyn) الذي اتخذ من شيراز قاعدة لعمله، ويرى أحد الملاحظين أن مارتين أظهر نفسه متفوقًا على الإيرانيين في كل المعارف[1]، وبدأ الأمريكيون عملهم في تبريز عندما افتتحت بعثة البرسبتاريان المتحدة (Unite Brespeterian) مكاتبها سنة ١٨٣٤م، بدأت البعثات التنصيرية عملها بدروس «الكتاب المقدس»[2]، وبيع الكتابات الإنجيلية[3]، ولكن ظل عملها في تحويل المسلمين إلى النصرانية فاشلًا إلى حد كبير، ونجحوا في أوساط الأرمن فقط، ووصلت النشاطات التنصيرية قمّتها في هذه الحقبة، ولم يدّخر المنَصّرون جهدًا في الحط من شأن الإسلام في أذهان المسلمين؛ كي يتحولوا عنه إلى النصرانية، ومن هؤلاء المنصّرين نذكر اثنين هما صموئيل دبليو زويمر (Samuel W. Zwemmer) (١٨٦٧م-١٩٥٢م)، ودنكان. ماكدونالد (Duncan B. Macdonald) (١٨٦٣م-١٩٤٣م). فالأول أمريكي الجنسية بينما يحمل الثاني الجنسية الإنجليزية، وستعطينا أفكارهما فكرة عن نظرتهما إلى الإسلام.

كان زويمر عضوًا في الكنيسة الإصلاحية الأمريكية (RCA)، وكان كثير السفر إلى الشرق الأوسط، وكان يؤمن بضرورة الاتصال المباشر مع المسلمين؛ لأنه كان يرى أن ثمة «طريقتان لدراسة الإسلام إحداهما طريقة العالم ومَكتَبَته. والأخرى ممارسة التنصير، وجادل بأن: «الرجل الذي يخرج إلى الطريق .. هو الذي يعرف

(1) Ibid., p. 65.
(2) D.M.McCurry, Op. cit, p. 35.
(3) Ibid., p. 35.

الحقيقـة ...»[1] تنـاول زويمر الإسلام، وهـو يحمل أفكارًا سلبيـة حوله، فهو يراه «تهديدًا وخصمًا للنصرانية»[2]، (قد اعترف بعيسى نبيًا من قبله إلا أنه خالفه في أن يصلح مثل هذه الخلافات الجوهرية، والعميقة الجذور، ويجب علينا أن ننتصر أو نُهزَم،فالإسلام في أصولـه، وتاريخه، ومواقفه الحديثة ... ضد النصرانية»[3]، ويعتقـد زويمر أنَّ الطريقة السريـة، أو الأسلوب غير المباشـر أسلوب قديم، وأنهم يعرفون أن النصرانية والإسلام متقابلان كندين من أجل السيطرة على العالم»[4].

لم يكـن زويمر استثنـاءً للكتابات التعصبية في القـرون الوسطى حيث لم يترك فرصـة لاحتقـار شخصية الرسول، فقـد اعتقد زويمـر أن الإسلام سـرق قداسة المسيح كابن لله، ووضع نبي الإسلام في مكانه، وهكذا لم يجد زويمر بأن النبي ﷺ كان رسـولاً مـن الله ذلك أن «الدين الذي أسسـه محمد ترك في كل مكان بصمات تدل على حياته وشخصيته»[5]، كان للرسول ﷺ صورتان وفقًا لزويمر: إحداهما: «محمـد في التاريخ» الذي سلـب القوافل، وذبح أسرى الحـرب، وقاتل في المعارك، والأخـرى تظهره على أنه أكمل البشرية من جهـات متعددة من الكمال، وأبعد بشر

---

(1) S.W.Zwemer, The Cross Aboue the Crescent: The Validity, Necessity and Urgency of Missions to Moslems. Grand Rapids: Zonder Publishing House, 1941. All quotations from Zwemer and Mac Donald taken from an excellent thesis by P. ipcma, ‹The Islamic Interpretations of Duncan B. Mac Donald & S.M.Zwemer: An analytical evaluation›. Ph. D. thesis. Conon: Hartford Seminary, 1971.

(2) Ibid., p. 55.

(3) S.W.Zwemer, The Moslem Doctrine of God: An essay on the character and attributes of Allah according to the Koran and Orthodox Tradition. New York: Young people›s Missionary Movement, 1905, p. 119.

(4) S.W.Zwemer, Across the World of Islam. Studies in Aspects of the Mohammedan Faith and in the present awakening of the Moslem Multitude. New York: Fleming H. Revell Co., 1929, p. 31.

(5) S.W.Zwemer, The Moslem World, New York: Young people›s Missionary Movement, 1908, p. 25.



عن الدناءة والآثام»[1]، ويرى زويمر أن الصورتين تناقض إحداهما الأخرى.

وقد استخدمت كل هذه المجادلات؛ لتؤكد الرأي القائل أن النبي «كان دجالاً ماهرًا من أول يوم في رسالته إلى يوم وفاته»[2]، ويزعم زويمر أن النبي كان قد جمع أفكارًا، وقصصًا من يهود المدينة، ورتبها بطريقة مخادعة على أنها وحي من الله، فليس عجيبًا أن الأدب العربي يزدحم بكل أنواع الوثنية»[3]، وليزيد زويمر من تحقيره لشخصية الرسول ﷺ يواصل جدله بقوله: مادام النبي قد اعترف بعيسى نبيًّا من قبله إلا أنَّه خالفه في «كل ما يدرك بالحواس من الموعظة على الجبل ليس فقط في حياته الخاصة، ولكن في نبوته الرسمية»[4].

ومن الخطط المستخدمة في كتابات النصارى المتعصبة إلقاء التهم بطريقة التلميح حول شخصية النبي، وهكذا فليس مدهشًا أن يكتب زويمر «عندما ماتت خديجة جعل القانون الخاص به مَرِنًا كما كان سابقًا حيث لم يكن كافيًا للحد من شهواته»، ويستمر زويمر في ذكر زواجاته[5]. هناك إشارات مستمرة في كتابات زويمر إلى إله المسلمين الذي يميز زويمر بينه، وبين إله النصارى؛ لأن «فكرة محمد عن الله تتضمن الرفض المتعمد للفكرة النصرانية عن الإله – الأب، والابن، والروح القدس»[6]، وبعد أن قدم زويمر صورة خاطئة ومزيفة للإسلام نجده يستنتج بأنَّ «تدمير الإسلام هو إعداد إلهي للدعوة في بلاد المسلمين، وكسب قلوبهم لولاء جديد»[7]، وهكذا نصح المنصِّرين بأن «حياة المسيح وحدها يمكن

---

(1) S.W.Zwemer, Islam: A challenge to Faith. New York: Student Volunteer Movement for Foreign Missions, 1907, p. 31.

(2) S.W.Zwemer, Arabia, The Cradle of Islam. New York: Fleming H. Revell Co., 1900.

(3) Ibid., p. 125.

(4) S.W.Zwemer, Islam: A Challenge to Faith, Op. cit., pp. 42-45.

(5) Ibid., p. 42-45..

(6) S.W.Zwemer, The Moslem Doctrine of God, op. cit., p. 92.

(7) S.W.Zwemer, The Disintegration of Islam. New York: Fleming H. Revell Co., 1916, p. 10.





أن ترتقــي بمفاهيمهــم الأخلاقيــة ... إن قوة المسيح وحدها يمكــن أن تطلقهم إلى حريــة أبناء الله، أليــس علينا أن نظهر لهم هذه الحريــة؟»[1]، كذلك نصح القوى الاستعماريــة بأن عليهم أن يهتموا في سياستهــم تجاه البلاد المستعمرة؛ لأنه «ليس ثمة حكومة نصرانية سوف تدعم مثل هذه المؤسسات المحمدية؛ لأنها تعارض تمامًا تطــور الشعــوب الاقتصــادي والسياســي»[2]. وبطريقة أخــرى: كان زويمر ينصح الحكام الاستعماريين بتدمير الإسلام، وهذا ينسجم مع خوفه منه؛ لأنه كان يعتقد إمــا النصر، أو الهزيمة. أما دنكان ماكدونالد، فمنصِّر من الكنيسة البرسبيتريان الأسكوتلانديــة (Presbyterian church of Scotland) ازداد اهتمامــه بالشعوب الإسلاميــة والإسلام عندما كان طفــلًا من خلال قراءته لكتاب: «ألف ليلة وليلة»، «لقــد أتقــن اللغــة العربية، وبدأ يُعَــدُّ مصدرًا موثوقًــا في الإسلام، ومــن كتبه عن الإســلام: (جوانب من الإسلام)، و(تطور العقيدة الاسمية)»[3] لم تلق هذه الكتب رواجًا فحسب، بل دُرِّست في جامعات الدول الإسلامية أيضًا، ووضعت ضمن مناهج التدريس في الدراسات الإسلامية. لقد أُعيد طبع كتابه: (تطور العقيدة الإسلامية) في الباكستــان سنة ١٩٦٠م، واستخدم لأغراض التدريس لسنوات عديدة[4]، اعتقد ماكدونالــد بأن «المجتمعات الإسلامية سوف تعاني مــن انهيار الإسلام الناتج عن هجوم الحضارة الأوروبية، وحالما تنهار أسطورة محمد، وتُرى شخصيته في المنظار الحق، فإن البناء كله سينتهي، وعندئذ ستقوم المدارس النصرانية، وكذلك الوعاظ بإنقاذ هؤلاء الناس .. نحو النصرانية»[5].

ورأى ماكدونالــد أن أكــثر الوسائــل فعاليــة؛ لتحقيــق أهــداف التنصــير ليس الهجوم علــى «المحمدية مباشرة، ولكن بالسماح للأفــكار الجديدة أن تقضي على

(1) S.W.Zwemer, Across the World of Islam, Op.cit., p. 31.

(2) S.W.Zwemer, The Disintegration of Islam, Op. cit., p. 136.

(3) D.B.Mac Donald, Aspects of Islam, New York: The Macmillan Co., 1911. D.B. Mac Donald the Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory. New York: Charles Scribners, 1903.

(4) It was reprinted by Premier Book, House in Lahore, in 1959.

(5) D.B.Mac Donald, Aspects of Islam, Op. cit., pp. 12-13.

أسسها»[١]، وعَدَّ ماكدونالد الإسلام هرطقة نصرانية، ويجب على الكنيسة النصرانية أن تبذل الجهد لإكمال رسالة محمد الناقصة، وتَهدي شعبه للخروج من الهرطقة إلى شخصية المسيح المطوقين بها[٢]، أشغل ماكدونالد نفسه بدراسة العقل الشرقي؛ لأن «الفرق الأساسي في العقل الشرقي ليس قوته تجاه الغيبيات ولكن كذلك عدم قدرته على بناء نظام للأشياء المرئية، وقد قيل: بتعبير بليغ أن الشرقي يمتاز بحدة في النظر مدهشة، وفي الفهم والتحليل لمسألة واحدة فقط، وعندما ينتهي من هذه المسألة يستطيع أن يتناول سلسلة أخرى من المسائل بالطريقة نفسها، وقد تكون هذه المسائل متناقضة، ولكن هذا لا يزعجهم، وعندما يبني أنظمة، كما يفعل غالبًا، يكون ذلك بتناول مسألة، وينسج حولها كل شيء، وليس بتناول مسائل عديدة وبنائها معًا[٣]. وقد فحص ماكدونالد حياة النبي ودوره من خلال هذه النظرة المرجعية، وحاول إجراء تحليل نفسي لحياة النبي ﷺ، وقسَّمها إلى ثلاث فترات: ففي الفترة الأولى من سنة ؟؟؟ إلى ٦١٠م. كان من المفترض أن النبي عانى من صدمة اليتم، ونتيجة لذلك كانت شخصيته غير مستقرة. وفي الفترة الثانية: التي تمتد من سنة ٦١٠ إلى ٦٢٢م كان من المفترض أنّ النبي رأى رؤى وسمع أصواتًا في الكهوف خارج مكة، وهذا مكَّنَ النَّبي من أن يستنتج أنه خليفة أنبياء العهد القديم، وأنَّ الله هو الذي اتصل به»[٤]، وهكذا فالنبي لا يُعَدُّ دجالًا ولكن «حالة مرضية أصابته»[٥]. وفي المرحلة الثالثة: من حياته التي تمتد من ٦٢٢ إلى ٦٣٢م. خضع محمد للإغراءات الدنيوية، وتميزت سنواته العشر في المدينة بانحدار أخلاقي[٦]، ويعتقد ماكدونالد أنّ تسعة أعشار الإسلام مركّزٌ على

(1) D.B.Mac Donald. The Religious Attitude and life in Islam. Chicago: The university of Chicago Press, 1909, p. 4.

(2) Ibid., p. 31.

(3) D.B. Mac Donald, Whither Islam in, The Muslim World, Vol. 23, (January 1933), p.3.

(4) D.B.Mac Donald, Aspects of Islam, op. cit., p. 66.

(5) Ibid., p. 60.

(6) Ibid., p. 70-81.

العقيــدة منشغل بالحديث عن الله وصفاته، وهذا يعود في نظره إلى أمرين: أولهما الأهمية البالغة بالنسبة لمحمد عن فكرة إله، «وكما شرح ماكدونالد سابقًا أن العقل الشرقــي له بناء غريــب». وثانيهما إنَّ تطور العقيدة الإسلاميــة كان إلى حد كبير «محكومًــا ومتأثرًا بعقيدة الكنيسة اليونانيــة، وبخاصة العقيدة، كما صاغها يوحنا الدمشقــي»[1]، ويبــدو تأثر ماكدونالد بيوحنا الدمشقــي واضحًا، فبعد أن قدم كل هذه الافتراضات كان من السهل عليه أن يقول: إن القرآن كان تفسيرًا لأفكار النبي، وأن «هــذا هو الشكل الذي أفصحت عنه عقيــدة الذات الإلهية عن نفسها له، ومن الطبيعــي أن موقفه ومنهجــه استمرا في التطورات اللاحقــة»[2]، وشعر ماكدونالد أن المشكلــة في العــالم الإسلامي لم تكــن النصرانية ضد الإسلام، كمــا نظر إليها زويمــر، ولكن «هي مسألة دين ضــد لا دين»[3]، فالإسلام عند ماكدونالد كما ذكر سابقًا ضلال، وهرطقة للعقيدة اليهودية النصرانية، وهكذا فالمسلمون بحاجة إلى تصحيــح، وبذلــك فالهدف النهائي هو تدمــير الإسلام، وعدم السمــاح له بعرض نفسه كما يشاء.

وبالرغــم مــن أن بعض هؤلاء الأشخاص عاشوا في فــترة مبكرة من هذا القرن إلا أن أفكارهــم ظلــت مستمــرة في التأثــير في منصِّري العالم الغربــي، فقد افتتح معهد زويمر لتنصير المسلمين سنة ١٩٧٠م، في مدينة باسادنيا (Pasadena) بولاية كاليفورنيــا الأمريكية، ومنذ ذلك الحين، وهو يدرِّس ويدعو لأفكار زويمر، ويتلقاها المنصِّرون الذين سينطلقون فيما بعد إلى العالم الإسلامي.

ومركز دنكن ماكدونالد أقدم بكثير من معهد زويمر، ويعمل من معهد هارتفورد اللاهوتي في ولايــة كاندكت (Connecticut) بالولايات المتحــدة الأمريكية، ويلتزم هذان المعهدان في عملهما بآراء هذين المنصِّرين التزامًا تامًا، وتعكس أفكار هذين

(1) Ibid., p. 123.
(2) Ibid., p. 124.
(3) D.B.Mac Donald, Whither Islam, Op. cit., p. 5.

المُنَصِّرين فكر البعثات التنصيرية اليوم بالرغم من أن بعض المجموعات قد تصرح بها علنًا، وللنشاطات التنصيرية في البلاد الإسلامية هدفان:

أولهما: تحويل النشء المسلم إلى النصرانية، وفي هذا المجال لم يحقق التنصير نجاحًا كبيرًا.

أما الثاني: فإن خطة المنصِّرين أنه إذا كان المسلمون لا يمكن أن يصبحوا نصارى، فعندئذ يمكن علمنتهم، وبهذا لن يصبح المسلمون تهديدًا للتوسع الاستعماري والاستغلال، ومن أجل علمنة المسلمين فقد أخذ المنصِّرون على عاتقهم مهمة التعليم؛ حيث فتحوا عددًا من المدارس التنصيرية التي استورد إليها ليس فقط التعليم الغربي، بل التغريب أيضًا، فالحضارة الغربية هي المثال الذي يجب أن يُحْتَذى، ودَرَّبت مدارس البعثات الأولاد؛ ليكونوا متمكنين في لغة، وتاريخ، وآداب، وفكر المستعمرين، وكان من السهل عليهم أن يحصلوا على وظائف أفضل في البناء الإداري الذي أسسوه المستعمرون في المستعمرات، وكان من السهل أيضًا تأسيس نموذج علماني لحكومة تفصل الدين عن السياسة، وبهذه الطريقة عَلْمَنَ المنصِّرون المسلمين، ولم يكن سهلًا تمسيح المسلمين، ففي المجتمعات المسلمة ينظر إلى الشخص العلماني على أنه سيئ في حين أن المسلم الذي يتحول إلى الإسلام من النصرانية ينظر إليه بارتياح ورضاء.

وقد استخدم المنصِّرون عددًا من الوسائل لتنصير المسلمين، فبالنسبة للأفريقيين يكون التركيز على منح البركات من الله لنقطة اللقاء بين الإسلام والنصرانية[1]، أما بالنسبة للعرب فتستخدم وسيلة «الحاجة المحسوسة»؛ حيث يكون التركيز على «الحاجات الكونية»، والحاجات المبنية على القضايا الثقافية، والحاجة المبنية على الإسلام، والحاجة المبنية على التغريب[2]، فالطلاب المسلمون في بريطانيا تُسْتَغَلّ وَحْدَتُهم، فيقدَّمُ إليهم «الحب والصداقة»، و«كرم

(1) L.Lenning, Blessing in Mosque and Mission, Pasadena CA: William Carey Library, 1980.

(2) T.Matheny, Reaching the Arabs: A felt Need approach. Pasadena CA: William Carey Library, 1981.

الضيافة»لاجتذابهـم[1]، ولكنه لم تنجح أي مـن هذه الوسائل؛ لأنه كما ذكر سابقًا ثمـة تمييز بين من يولد نصرانيًا، أو يتحول إليهـا من الإسلام، فالأخير ينظر إليه بعين الريبة والشك، وثمة حاجز عرقي لا يمكن من قبولهم.

الاستنتاج:

ينظـر العـالم الإسلامـي إلى المنصريـن نظـرة عدائيـة بسبـب ارتباطهـم بـ «التعريب»و«العلمنـة»، ويقـدم المارونيـون في لبنـان والأقبـاط في مصـر أفضـل الأمثلـة علـى ذلك؛ لأنهم يربطون هويتهـم بالغرب بدلًا من المسلمـين اللبنانيين أو المصريـين[2]، وتزداد هذه النظرة؛ لأن هؤلاء يعملون كوكلاء للتغريب فهم يحاولون هدم المجتمعات الإسلامية.

(1) Light on Islam: Reaching out to Muslim students in Britain. Leicester: Universities and Colleges Fellowship, 1988.

(٢) لعـل أبـرز دليل على هذا أن معظم الدعوات الهامة التي ظهرت في العالم العربي كان روادها مـن هؤلاء مثل الدعوة إلى القومية العربيـة، والدعوة إلى حزب البعث، والدعوة إلى العامية، ومن هؤلاء جورج أنطونيوس، وسعيد عقل، وجرجي زيدان، وجورج حبش، وقسطنطين زريق، ولويس عوض، وسلامة موسى .. وعداهم.





الفصل الخامس

العرقية والصور الجامدة

عندمـا تُدَرَّسُ الآراء المتعصبة والعنصرية لأطفـال المدارس في بلد ما ضد بلد آخر، فإن ذلك يَحِدُّ من التفاهم بين شعبي البلدين، مثل هذا التعليم ينتج عنه وضع الشعـوب الأخرى في صورة جامدة، وهذه الصور تُكَـوِّن تصورات عامة، وتصورات سابقـة في عقـول كل شعب تجاه الشعب الآخر، وقد تكون هـذه الآراء الجامدة لدى شعـب عـن شعب دولة أخرى غير موجـودة أصلًا بين أعـراق مختلفة في بلد واحد، وهـذه الآراء الجامدة تـؤدي إلى تكوين صورة «جامدة» في عقـول شباب شعب ما، ويتعجب الإنسان هل تم ذلك بسبب الجهل؟! ومع ذلك فقد أظهر الباحثون أن الجهل ربمـا لا يكون هو السبب الوحيد، ولكن العوامـل الأهم هي السيطرة السياسية التي مارسهـا الاستعمـار في القرون الماضية، فمثلًا: عندمـا استعمرت بريطانيا مناطق واسعـة في القارة الأفريقية استخدمت العنصرية؛ لتبريـر سيطرة الشعب الأبيض علـى الشعب الأسود، وحسب رأي جونز، فـإن «مفهوم السواد قد حُمِّل بمعانٍ حادة ... حيـث تَضَمَّن معنى أبيض، وأسود الطهارة والقـذارة، والعفة والذنب، الفضيلة والدنـاءة، الجمال والقبـح، الرحمة والشـر، الله والشيطـان»[1]، وأصبح احتلال أفريقيـا مشروعًا بسبب هذه الوصمات، وشبيه بهذا، فإن كتبًا أخرى ذكرت تبريرًا مفـاده أن «أفريقيا كانـت قبل الاحتلال صورة الأسود المتوحش المنفر»[2]، وكانت الحقيقـة أن أفريقيا «البربرية» كانت مجرد تبريـر؛ لاستغلال الثروات المعدنية في هذه الأرض وتجارة الرقيق.

لم يكـن هدف الآراء الجامـدة إيجاد الخط الفاصل بناء على اللون بين الحاكم والمحكـوم. ولكن عـددًا من الصفـات نُسِبَت إلى شعوب الدول غـير الغربية، وهي: صفات لا تُصَوِّر الحقيقة الاجتماعية، كما هي في الواقع، وكانت إحدى هذه الصفات

(1) Eldred Jones. Othello›s Countryman, Oxford University press, 1965. Quoted in D. Kuya, Racism in Children›s Books in Britain, in R. Priestwerk, ed. The Slant of the Pen, Geneva: World Council of Churches, 1980, p. 27.

(2) Quoted in Basil Davidson, Africa: History of a Continent London: Spring Books, 1972, Ibid., p. 32.



هي تفوق الأوروبيين مقابل النقص لدى غير الأوروبيين، وبررت هذه الآراء الجامدة الاحتلال الأوروبي؛ حيث أظهرت فيما بعد أن الأوروبيين قد جاؤوا إليهم بحضارة أرقى مما لديهم، وقد تم إجراء مسح للكتب الدراسية المستخدمة في المدارس، وسوف نَشرح كيف تُعرَض هذه الصور الجامدة عن الشعوب وعاداتها وأديانها؟

دراسات مسيحية من الولايات المتحدة الأمريكية :

استقصت الدراسات تَنَاوُلَ مناهج المدارس الثانوية الأمريكية للشرق الأوسط، وقد اعترفت هذه الدراسات بأن «الأتراك، والمصريين، والعرب هم أغلب المجموعات العرقية في الشرق الأوسط المرتبطة بصفات سلبية»[1].

قامت رابطة دراسات الشرق الأوسط (MESA) سنة ١٩٧٢م بتشكيل «لجنة صورة الشرق الأوسط في المدارس الثانوية»، وأظهرت نتائج الدراسة أن غالبية الكتب المدرسية «أخطأت في المحتوى، وأكدت استمرارية الصور الجامدة في النواحي السياسية والاجتماعية، وبَسَّطت أكثر مما هو مطلوب الموضوعات المعقدة، وذكرت النتائج بينما أهملت الأسباب، وقدمت حكمًا أخلاقيًا على تصرفات الأمم في هيئة تاريخ حقيقي»[2].

وأجريت دراسة تحليل المحتوى لست وثلاثين كتاب مدرسي في العلوم الاجتماعية المستخدمة في المدارس الابتدائية والثانوية في ولاية كاليفورنيا خلال السنة الأكاديمية ١٩٧٤م-١٩٧٥م، وكان تركيز هذه الكتب منصبًا على تصوير الشرق الأوسط على أنه المجتمع العربي البدوي، وكانت العبارات المرتبطة بهم هي: الجمل، والصحراء، والبدوي، وعُدَّ الغزو، والسلب، والحرب صفات متوارثة

(1) Samir Jarrar, The Treatment of Arabs in U.S.Social Studies Textbooks: Research Findings and Recommendations in Edmund Ghareeb (ed). Split Vision: the portrayal of Arabs in the American Media. Washington D.C. American-Arab Affairs Council, 1983, p. 383.

(2) W.Griswold, et. Al, The Image of Middle East in Secondary School Textbooks. New York: Middle East Studies Associations, 1975, p. 2. Also see: Ayad al-Qazzaz, Images of the Arabs in American Social Science Textbooks in Arabs in America (ed.) Baha Abu Laban and F.T.Zeady. Wilmette, III: The Medina University Press International, 1975, pp. 113-132.



في الحيــاة البدوية، واحتوت الكتب على كثير مــن المعلومات الخاطئة عن الإسلام؛ حيــث غالبًا ما يشار إليــه باسم «المُحَمَّديــة»، وهو تعبير استخدمــه المستشرقون، وكانــت النظــرة إلى موســى وعيســى (عليهما الســلام) أنّهما رســولان أوْحى الله إليهمــا الوصايا العشر، وأعطاهما المعجزات، ولكــن نبي الإسلام محمد ﷺ نُظر إليــه على أنه قائد قافلة، كان يسافــر جيئةً وذهابًا عبر الصحراء، «وفكر كثيرًا في الديــن»[1]، والتلميح هنا أنَّ الإسلام ليس موحًى به من الله، وثمة تركيز كبير على الصفة الحربية للإسلام: فالمسلمون «نشــروا عقيدتهم بالسيف»[2]، بينما اعتمد النصارى من جهة أخرى على الكتاب المقدس.

وقــد أكــدت منهجيــة أخــرى استمرارية هــذه الصفة، وهــي انتشــار الإسلام بالسيــف، وكيف أنَّ المسلمين خرجوا لغزو العــالم باسم الله؟ وكيف أن الجنة مليئة بالمحاربين المسلمين؟ وكيف تم فرض الإسلام على القبائل العربية بالسيف؟ وكيف أن المسلمــين أناس يحبون الحرب؟ وكيــف أن السيف هو مفتاح الجنــة؟ وكيف أنَّ الإسلام دين محارب؟[3].

وعُــدَّ الــرقّ أمــرًا مقبــولًا في الإسلام، وصُــوِّرت الجنــة على أنها مــكان؛ حيث «النساء خادمات»[4]، وزعموا أنَّ القرآن قد عَلَّم المؤمنين أن «النساء ينبغي لهنَّ أنْ

---

(1) W.Gardner, The New World›s Foundation in the Old. Boston: Alyn and Bacon, 1964, p. 287.

(2) R.S.Yohe, Exploring Regions of the Eastern Hemisphere. Chicago: Follett, 1964, p. 287.

(3) See: T. Wallbank, et. Al., Living World History. Atlanta: Scott Foresman, 1964, H.H.Eibling, et. Al., Our Beginnings in the Old World. Scaramento. CA: State Department of Education. 1964, J.K. Batterworth, et. Al., Your Old World Past. Austin: Steck, 1961. T.D. Clark, et.al. America›s Old World Fronties. Scaramento, CA: State Department of Education, 1964. G.S.Dawson, Our World. Lexington, M.A. Ginn, 1975. W.Cassidy, et. Al., Long Ago in the Old World. Columbus, Ohio: Charles Merrill, 1964.

(4) N.Platt, et. Al., Our World Through the Ages. Englewood Cliff›s, N.J: Prentice-Hall, 1967, p. 145.



يكُـنَّ جوارٍ للرجال»[1]، والقرآن نفسه يحتوي على «أقوال الرسول»، ولن تكون هذه الكتـب مكتملة لو لم تعط صورًا سلبيـة للشعب الإسلامي خلال الحروب الصليبية، فالأتراك نهبوا وعذبوا وقتلوا كثيرًا من النصارى، وباعوا آخرين عبيدًا، ورفضوا أن يأذنوا النصـارى بزيارة الأماكن المقدسة، وكانوا باختصار «برابرة»، ومن فضول القـول أن هـذه الكتب المدرسية المستخدمـة في المدارس الأمريكيـة لم تعزز معرفة الإسلام في عقول الشباب، بل على العكس أوجدت صورًا مشوهة له.

وظهـرت دراستـان أخريـان سنـة ١٩٧٥م حَلَّلـت الأولى اثنين وعشريـن كتابًا مدرسيًا، وأوضحت ما يأتي:

١- المصطلح «عرب»، و«ومسلمون» استخدما بمعنى واحد.

٢- ثمة اضطراب بين «الإسلام كدين»، و«طريقة للحياة».

٣- تفضيل إسرائيل ووجهات النظر الإسرائيلية على العرب ووجهات نظرهم[2].

وتولـت الدراسة الثانيـة، فحص ثلاثة وأربعـين كتابًا تستخـدم غالبًا في أربعة مجالات من العلوم الاجتماعية، وتاريخ العالم، والجغرافيا، والدراسات الاجتماعية، والديمقراطيـة الأمريكيـة. وأكـدَّت هذه الكتـب استمرارية الاسقاطـات، والصور الجامدة والتعميمات غير المعقولة، وفقدان التوازن عند تقديم المادة[3].

وأظهـرت الدراسات التي أجريت عامي ١٩٧٩م — ١٩٨٠م على الكتب المدرسية المستخدمـة في كاليفورنيا، ونبراسـكا، وواشنطن العاصمة أن هذه الكتب عانت من العيـوب نفسهـا التي وجـدت في الدراسات التي نشـرت سابقًـا[4]، وتبنت الرابطة

(1) W.Gardner, op. cit., p. 191.

(2) O, Perry, Treatment of the Middle East in American High School Textbooks. In Journal of Palestine Studies. Vol. IV, No. 3, April 1975, pp. 46-58.

(3) See: S.A. Jarter, Images of the Arabs in United States Secondary School Social Studies Textbooks. A Content Analysis and Unit Development. Unpublished Ph.D. dissertation. Florida State University, 1975.

(4) Ayad al-Qazzaz, Image Foundation and Textbooks in Edmund Ghareeb, op. cit., p. 372.




القومية للعرب الأمريكيين (NAAA) أيضًا دراسة في عام ١٩٨٠م، ووجدت الآتي:

١. تقاس الثقافة والتاريخ العربيين بالمعايير الغربية.
٢. المعلومات المقدمة في هذه الكتب غالبًا ما تكون قديمة وغير دقيقة.
٣. الآراء السلبية شائعة بالإضافة إلى استخدام لغة محمّلة بالقيم في الحديث حول الشرق الأوسط.
٤. محاباة إسرائيل حين الحديث عن الحرب العربية الإسرائيلية.
٥. عرض الإسلام بصورة سلبية[١].

دراسات مسحية من كندا:

توصلت الدراسات التي أجريت حول كتب العلوم الاجتماعية المدرسية في كندا إلى النتائج نفسها التي توصلت إليها الدراسات حول الكتب الدراسية الأمريكية، وذلك من ناحية عرضها لمعلومات زائفة حول الشرق الأوسط[٢]، وقد أجريت إحدى هذه الدراسات سنة ١٩٧٢م، وذلك بتحليل المحتوى لأكثر من سبعين كتابًا مدرسيًا في العلوم الاجتماعية، ومقرر تدريسها في انتاريو (Ontario) من قبل وزارة التعليم في ولاية بروفنس (Provence)، وقد أظهرت الدراسة أن الأفكار الزائفة حول العرب منتشرة خلال هذه الكتب، فالعرب في هذه الكتب مغرمون بالغارة على القوافل على سبيل قضاء وقت الفراغ، كما أنها محببة إليهم، وتبالغ هذه الكتب في التأكيد على بداوتهم[٣]، وثمة زعمٌ: أن النبي منذ بدء الإسلام «ربما يكون قد سمع أفكارًا يهودية ونصرانية»[٤]، وعُدّت الكعبة وزمزم أشياء تُعَبَد لدى المسلمين[٥]، وذكرت

---

(1) See: National Association of Arab Americans› Treatment of the Arab World and Islam in Washington Metropolitan Area Junior and Senior Textbooks. Washington, D.C., 1980.

(2) L.M. Kenny. The Middle East in Canadian Social Science Textbooks in (ed.) Baha Abu Leban and F.T. Zeady, Arabs in America. Op. cit., pp. 133-147.

(3) W.G.Itardy, et. Al., Journey into the past. Toronto: McClelland and Steward, 1965, p. 321.

(4) Ibid., pp. 320-325.

(5) ibid., p. 321. Also see: E.Lavender, et. Al., A Thousand Ages. Toronto: Mc-Graw-Hill, 1962, p. 281.

أن رمضان هو شهر الحج[١]، ووُصف الذين قاموا بنشر الإسلام «بأنهم محاربو الإسلام المتوحشون المسعورون – نشروه بالسيف-، أما الذين واجهوا الحملات الصليبية: فهم ملحدون، وثنيون، وعرضت معركة تور (بلاط الشهداء) بصورة مثيرة مع المبالغة في شجاعة النصارى حينما أوقفوا توسع المسلمين في أوروبا، أما إسهامات الحضارة الإسلامية في ميادين الطب، والفلسفة، والرياضيات، وعلم الفلك، والتجارة، والفن، والعمارة، فقد قُلِّل من شأنها، وكانت الإشارة ضئيلة جدًّا لأسبانيا الإسلامية التي أسس فيها المسلمون مراكز تعليمية في كل من غرناطة، وطليطلة، وقرطبة، ولكن من جهة أخرى تناولت هذه الكتب الاستعمار الأوروبي على أنه لمصلحة الشرق الأوسط، فالسيطرة البريطانية على الدول الواقعة تحت الانتداب كانت لتقديم «التدريب على الاستقلال»، بينما صُوِّر اضطهاد الاستعماريين الفرنسيين على أنه «حزم وكفاءة وخير؛ لأن فرنسا كانت أساسًا تقوم بأعباء الرجل الأبيض»[٢]، ووُصف القادة العرب من أمثال جمال عبد الناصر على أنهم «متهورون»لشرائهم السلاح من الكتلة الشرقية، ووصفت الحركات القومية في الشرق الأوسط على أنها «مثيرة للمشكلات»، وأعضاؤها «كارهون عنيفون للأجانب»[٣]، وعلى النقيض من ذلك امتدحت الدراسة اليهود؛ لأنهم بنوا مجتمعًا في الصحراء، وكانوا أصحاب روح ريادية، «وبنوا مزارع خصيبة، وحدائق العنب في الأراضي الصحراوية المهجورة، والمستنقعات «عن طريق العمل الشاق، والعزم والتخطيط»[٤]؛ لأنهم استطاعوا أن يحولوا الأرض القفر الفارغة إلى أمة متحضرة منتجة، ويفترض أن الإسرائيليين قد عانوا من المشاق، وجاءوا بقليل من المال، ولكنهم مع ذلك حولوا الصحراء إلى دولة حديثة، وطبعًا فإنَّ التلميح الخفي في هذا كله هو تبرير قيام دولة إسرائيل.

---

(1) E.Lavender, ibid., p. 286.

(2) J.Gwyne-Timothy, Quest for Democracy: Revolution, Reaction and Conflict. Toronto: McClelland and Steward, 1970, p. 103.

(3) L.M.Kenny, Op.cit., p. 143.

(4) Ayad al-Qazzaz, Op. cit., p. 119.

وعنــد المقارنــة نجد أنَّــه ليس ثمة شك أنــه تم إبراز اليهود بصــورة أفضل من العرب، فادعاءات اليهود في فلسطين لها مبرراتها؛ لأنها بلدهم من قديم الزمان[١]، والعرب هم المعتدون؛ لأنهم «مصممون على تدميرها»[٢]، وبينما قام اليهود «بدحر المعتدي»[٣] نجد صمتًا تامًا حول الوحشية التي ارتكبها الإرهابيون الصهاينة، وأي حقيقــة يمكن أن تُخَــرِّب صورة إسرائيل لابد من حذفها، وعلــى العكس يُعَدُّ العرب السبــب الأساسي للمشــكلات التي ابتُلِيَ بهــا الشرق الأوســط[٤]، وأن عداوتهم... تُعقِّــد الأمور في الشرق الأوسط[٥]. ويضــاف أيضًا إلى الخلاف العربي الإسرائيلي عنصر الغَيْرة؛ حيث يُعَدُّ نموذج إسرائيل في «الديمقراطية» سببًا لقلق بعض الدول العربية؛ لأن حكّامها يخافون من الجماهير أن تتعلم من المثال الذي وضعه اليهود، وربمــا يطلبون أن يكون لهم مكانة أكبر في إدارة الحكومة، وهكذا فإن الحكام كانوا معاديــن لإسرائيل[٦]، وقد أدت هــذه المقارنات إلى مواقف مؤثــرة لصالح اليهود، بينما وصفــت العرب بأنهم أتباع الإسلام، وقامت دراســة أخرى بفحص الكتابات التي صدرت عن الكنائــس البروتستانتية التي تمثل وكالة أنباء لأتباعها في مدارس الأحــد[٧]، ومــرة أخــرى نجد الصــور السلبية المعروضــة للإســلام، فالإسلام هو هدفهــم الأول، ويأتــي بعده الحروب الصليبيــة، ثم الشعوب العربيــة، ومرة أخرى أطلقت الكنيســة الكندية المتحدة على المسلمين اســم «المُحَمَّدِيِّين» الذين دعوا إلى «إلــه يطلقون عليه الله، وإلى محمــد الذي يزعمون أنَّه نبيــه»[٨]، ومن الواضح أنَّ هــذا، يعني: أنَّ إلــه النصارى، وإله المسلمين مختلفان، وهذا يلقي شكوكًا حول نبوَّة

(1) S.W.McKay, The Communides we build, Chicage: Pollet, 1973, p. 164.
(2) L.C.Wood, et.al., America: Its People and Values. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1975, p. 761.
(3) E.R.Kolevzon, The Afro-Asian World, Boston: Allyn and Bacon, 1969, p. 552.
(4) T.W.Wallbank, et. Al., Living World History. Atlanta: Scontt, Foresman, 1964, p. 721.
(5) N.Platt, Op. cit., p. 689.
(6) E.R.Kolevzon, Op. cit., p. 553.
(7) Sharon Abu-Leban, Stereotypes of Middle East Peoples: An Analyzing Church School Curicula in Arabs in America, Op. cit., pp. 149-169.
(8) I.S.Clark, The Mystery Continues, Junior 3. Toronto: The United Church Publishing House, 1966, p. 52.



محمـد ﷺ، ويُعـرِّفُ المسلم في كتاب آخر صـدر عن الكنيسـة الميثودستية المتحدة (United Methodist) أنـه: «تابع لمحمد الذي أوجد دينًا يطلق عليه الإسلام»[1]، ومن الواضح أن كلا الرأيين متفقان ضد الإسلام.

أمـا بالنسبة للحـروب الصليبية، فالحديث فيها يحتوي علـى الكيفية التي ذبح فيهـا المسلمـون النصـارى، ولكن لا يذكـر شيء عـن آلاف المسلمين الذيـن ذُبحُوا بوحشيـة، ويوجـه اللوم للمسلمين في الحروب الصليبيـة، وأن النصارى كانوا فقط يـردون على الاضطهـاد العنيف الذي تعرض له النصـارى»[2]، ومرة أخرى وصف العرب الذين يعيشون في الشرق الأوسط على أنَّهم بدو، فالتاريخ لم يقدِّم إلا جانبًا واحدًا لتصوير الشخصية.

دراسات مسحية من ألمانيا الغربية:

نشـرت دراسة مسيحية بعنوان: (صورة الإسـلام في الكتب الدراسية الألمانية) تضمَّنت مسحًا لعدد مـن الكتب المنهجية في المدارس الابتدائية والثانوية، ووُجِد أنَّ هذه الكتب تحتوي معلومات خاطئـة[3]، اعتمد الباحث على ثلاث متغيرات للتقويم من أجل الدقة، والكفاية، والحساسية، وبهذا الأسلوب تم الفحص الدقيق للحالات، والأحداث من خلال تحليل المحتوى، وذلك عن طريق التأكد هل كان التشويه متعمدًا أو غـير متعمد في المـادة التاريخيـة والجغرافية؟ وتمت دراسـة الموضوع من خلال المتغـير الثاني (الكفاية) للتعرف عمَّا إذا كانـت مبنيَّة على آراء متوازنة بخصوص الإسـلام، وتعني الحساسية القدرة على إدراك الجوانب المهمة في الإسلام، وكانت خطة هذه الدراسـة تعني بتحليل محتوى الكتب الدراسية في المدارس الألمانية، وقد وجد الباحث عيوبًا محددة في عدة جوانب:

أولًا: قُدِّمت صورة مشوهة عن عقيدة القضاء، والقدر في الإسلام.

---

(1) Let it Happen. V-VI Student. Nashville, Tenn: Graded Press, 1974, p. 76.

(2) I.S. Clarke, Op. Cit., p. 62.

(3) Udo Tworuschka, The Image of Islam in German School, Textbooks, Birmingham: Centre for the Study of Islam and Christian Muslim Relations, 1986.





ثانيًا: لم تعترف بالقرآن ككتاب موحى به، بل هو كتاب كتب فيه «محمد أفكاره حول الله».

ثالثًا: هناك تلميحات مهينة حول حياة الرسول ﷺ تسود هذه الكتب، فقد وُصف النبي بطريقة ساخرة على أنه «سائق جمل»، فالمؤلفون يفتقدون صفة التعاطف، أو الحلم مع المفهوم الإسلامي لمحمد»[1]، وصُوِّر زواج النبي الأول على أنه حركة خُطِّط لها بين شخص تافه والثراء، وعُدَّت الهجرة على أنها عمل «متهور وهروب متعجل»، والحديث عن الفترة المكية على أنه نقيض الفترة المدنية؛ حيث صُوِّر النبي في المدينة على أنه «وحش ومخطط ماهر وسياسي محتال»[2] بالإضافة إلى ذلك، فثمة معان مغلوطة في هذه الكتب، فمثلًا يُسمَّى الجهاد بـ«الحرب المقدسة»، وصوِّر الإسلام على أنه «دين بدائي»يأمر الفتيات في المدارس بارتداء غطاء الرأس، ويحرِّم على أتباعه أن يأكلوا لحم الخنزير، والأئمة أناس متطرفون، بينما يُنظر إلى الأتراك المهاجرين على أنَّهم يصلون في قاعات دكاكين حقيرة»[3].

وثمة تشويهات خطيرة تلك التي تحتويها كتب التاريخ، فهذه الكتب لا تحتوي فقط «مقولات معيبة»، ولكن أيضًا حذفًا لحقائق تاريخية جوهرية، وأهم من ذلك وجود تفسيرات وآراء مضللة»[4]، وكما ذكرنا آنفًا يُنظر إلى الفتوحات الإسلامية، على أنها «عمل وحشي»، وفي محاولات من المسلمين لتبريرها يورد المسلمون عبارات مثل: «يجب أن ينتشر الإسلام بالنار، والسيف وفقًا لإرادة محمد»[5]، أما الفترات ما بين القرنين الثاني عشر، والتاسع عشر، فإن عددًا كبيرًا من الكتب لم يتناولها إلا حينما تكون ثمة مصالح لأوروبا، وتحتوي هذه الكتب على اتجاه آخر هو

---

(1) Ibid., p. 10.
(2) Ibid., p. 12.
(3) Ibid., p. 14.
(4) Ibid., p. 16.
(5) Ibid., p. 16.



المبالغـة في التبسيط للحقائـق، والعلاقات عندما يتعلق الأمـر بالتاريخ الإسلامي، والديـن الإسلامي[1]. وثمة اتجاهات أخرى تُظهر بأن الإسلام يفهم على أنه «دين توحيدي، وليس فيه تنوع داخلي يستحق الذكر»[2]. ويعتبر التاريخ الإسلامي جامدًا في مقابـل حيـوي، ويقـدم الباحث ملاحظـات مهمة، وهـي: أنه «لا أحـد يستطيع بالطبع أن يفرض على كاتب بروتستانتي، أو أستاذ أن يؤمن بالوحي القرآني، ولكن يجـب على كل كاتـب أن يحاول أن يكتب عنه أو يدرسه حتـى لا يكون في ذلك إيذاء للمسلمـين»[3]. وتقدم الدراسـة أيضًا صورة سلبية حول كيفيـة عرض الإسلام في الكتب المنهجية في المدارس الألمانية الغربية.

دراسة مسحية للمملكة المتحدة:

قدم شريفي في دراسته الممتازة: (تقويم الكتب المنهجية حول حياة النبي محمد المستخدمـة في المدارس البريطانية) عـدة ملاحظات وجيهة يفضح فيها المعلومات الخاطئـة المتفشية في مثـل هذه الكتب[4]. وقد أشار شريفـي إلى عدد من الحقائق المهمة:

أولًا: هنـاك افتقاد للموضوعية؛ حيـث تفضل آراء المستشرقـين على المصادر الأصلية عند الكتابة عن الإسلام، وأن الحديث يعد في نظرهم «لا قيمة له كمصدر تاريخي»[5].

ثانيًا: لا تعـد العقيـدة الإسلاميـة عندهم وحيًـا، بل هي صـورة مستعارة من المصادر النصرانية واليهودية.

---

(1) Ibid., p. 18.
(2) Ibid., p. 19.
(3) Ibid., p. 4.
(4) Hadi Sharifi, «An Assessment of text books on the life of Prophet Muhammad used in British schools». In Muslim Educational Quarterly, Vol. 3, no. 4, 1986, pp. 11-29.
(5) Ibid., p. 15.

ثالثًا: لم تُفهم ظاهرة النبوة فهمًا صحيحًا، بل استخدمت لإلقاء المطاعن الكاذبة على حياة النبي محمد، وأشارت دراسة أخرى إلى العيوب الموجودة في الكتب التي يستخدمها التلاميذ[1]، فقد أبرز الكاتب كيف أن التشويه واضح في هذه الكتب في موضوع حياة النبي محمد ﷺ وفي القرآن؟[2]، وتؤكد دراسة أخرى حول الكتب المنهجية المستخدمة في المدارس هذه النظرة[3]، فما زال مؤلفون آخرون يستخدمون تعبير «المُحمدية» بدلًا من الإسلام، ويذكر بيرك (Burk) أنه توجد مقارنات زائفة بين النصرانية والإسلام، مثلًا: القرآن هو إنجيل المسلمين، وقد اكتشف بيرك أخطاء تاريخية وواقعية، ومثال ذلك: أن غنائم الحرب هي السبب الوحيد الذي جذب أهل المدينة؛ لينضموا إلى الرسول[4].

الاستنتاج:

لقد أظهرت الدراسات المَسْحِيَّة السابقة كيف يتم عرض صورة زائفة عن الإسلام والمسلمين؟ وبالرغم من أن الاستعمار قد ذوي إلا أن التفكير الاستعماري، والنظرة الاستعمارية ما يزالان راسخان في معاهد الغرب، ومن أجل أن يطيل أمد آرائه عمد الغرب إلى الكتب المدرسية، وقصص الأطفال التي قامت بدورها في السيطرة على عقول الشباب من خلال معلومات ضد الإسلام، وبناء على ذلك فمن الواضح جدًا أنه من خلال العنصرية، والأيديولوجية العنصرية يتم السيطرة على نظام التعليم الغربي، وقد بدأت تظهر دراسات تتحدى الاتجاه الأيديولوجي لنظام التعليم البريطاني[5]، ولكن ثمة حاجة إلى مزيد من الدراسات؛ لإبطال الاستعمار من نظام التعليم البريطاني، وكذلك فهناك حاجة ماسة إلى دراسات شبيهة؛ لتحدي الصورة الزائفة المفترضة للإسلام في الغرب عمومًا.

---

(1) Mary Hayward, Books for Pubil Use. Muslim Educational Quarterly, Ibid., pp. 52-65.

(2) Ibid., p. 60.

(3) D.MBurke, «Analysis of School Textbooks on Islam». In Muslim Educational Quarterly, Ibid., pp. 75-100. Ibid., p. 60.

(4) Ibid., p. 80.

(5) Amon Saakana and A.Pearse, Towards the Decolonization of the British Educational System. London: Karnak House, 1986., p. 9.





الفصل السادس

علم الاجتماع ونظريات التطور

نظرًا لأن الدراسات الاجتماعية لم تنل اهتمامًا كافيًا خلال الحقبة الاستعمارية، لذلك اتجه الاستعمار للإفادة من نتائج أبحاث الاستشراق، وعلماء الأنثروبولوجي[١] لإظهار سيطرتهم السياسية، واستغلالهم الاقتصادي للبلاد الإسلامية بالمظهر الشرعي، ولكن وضعت قواعد علوم اجتماعية جديدة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، هذه العلوم - علم الإنسان، وعلم الاجتماع - ساعدت الاستعماريين في تعزيز سيطرتهم على المجتمعات المسلمة وغير المسلمة، فبينما حاول الاستشراق التشكيك في الإسلام مباشرة، فإن العلوم الاجتماعية حاولت تدمير النظام الاجتماعي للمجتمعات الإسلامية، واستبداله بأفكار علمانية غربية، لقد كان نوعًا من الهجوم الماكر جدًا.

كان علم الأنثروبولوجي أول العلوم الاجتماعية، ويعد حقًا «ابن الإمبريالية»[٢]، فقد ساعدت نتائجه الإدارة الاستعمارية، وكذلك الآخرين - مثل التنصير - في فهم عادات الشعوب التي حكموها، وأساليب حياتها، فقد أصبح علم الأنثروبولوجي الاجتماعي «مهمًا للإدارة الاستعمارية في سياق الحكم القسري المباشر، وفي سياق اتجاه الإصلاح من أعلى»[٣]، لم يكن الاستعماريون على علم بالثقافات المختلفة للشعوب الأخرى، وثقافة الشعوب غير الغربية يختلف بعضها عن بعض، كما هي مختلفة عن ثقافة حكامهم الجدد، وتولى علماء الأنثروبولوجي

(١) الأنثروبولوجي: هو علم الإنسان والمسلمون أسبق في دراساتهم للإنسان حيث نزلت سورة مريم في القرآن باسم: «سورة الإنسان»، بالإضافة إلى توجيه القرآن الكريم للمسلمين لذلك، ومن الكتب الإسلامية الرائدة في هذا المجال - على سبيل المثال - كتاب: «تفصيل النشأتين» للفخر الرازي، وقد أبقيت على المصطلح الغربي؛ لأنه ليس العلم الحقيقي، بل هو العلم الذي أفاد الاستعمار، والإمبريالية في سيطرتهم على الشعوب غير الغربية. (المترجم).

(2) See: M.Gough, «Anthropology: Child of Imperialism». In Monthly Review, April 1968.

(3) S.Feuchtwang. The Colonial Formation of British Social Anthropology, in T. Asad (ed.) Anthropology and the Colonial Encounter. London: Ithaca. Press, 1975, p. 93.



دراسة ثقافات الشعوب غير الغربية، وكانت المعلومات المقدمة من قبلهم ضرورية وأساسية للاستعماريين، وكلما ازداد فهم الاستعماريين لثقافة المحكومين كلما زاد فهمهم لنقاط القوة والضعف، وبالتالي تسهل سيطرتهم على الشعب، وهكذا فلم يكن الدافع لدراسة الشعوب غير الغربية إنتاج المعرفة لذات المعرفة، ولكن لتزويد الاستعماريين بوسائل لاستغلال الأمم غير الغربية، وكان التمويل جاهزًا لإعداد البحوث، فأجريت العديد من الدراسات عن آسيا، وأفريقيا، والشرق الأوسط تحت ستار الموضوعية الأكاديمية، ولكن كما لاحظ طلال أسد «من الجدير بالملاحظة أنه لا يعرف عن أحد من علماء الأنثربولوجي الأوروبيين أنه مال إلى الثقافة التابعة التي درسها»[1]، فالموضوعية بالتالي أسطورة استخدمت لتكريس نتائج بحوث الأنثربولوجي.

قدم علم الأنثربولوجي للاستعمار مناهج واقعية حول كيفية نقل التغيرات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية من الغالبين إلى أتباعهم، فقد ابتدع الأنثربولوجي نماذج نظرية مناسبة تحت عنوان: «البنائية العملية»، وقد مارست هذه النظرية تأثيرًا أكاديميًا قويًا من خلال كتابات علماء الأنثربولوجي، وعلماء الاجتماع من أمثال مالينوويسكي (Malinowiski)، وبارسون (Parson)، وأدخلت مناهج نظرية للتغيير السياسي في المجتمعات غير الغربية، وأشارت نظرية «البنائية العملية» إلى أن كل مجتمع يحتوي على هياكل مستنبطة وفقًا لتاريخ الشعب وتقاليده، وتقوم هذه الهياكل بمهمات سياسية، واقتصادية، واجتماعية، ولابد من تغيير الهياكل، أو هدمها، أو تعديلها من أجل تغيير أي مجتمع حتى يصبح ممكنًا تغيير مهماته آليًا، وقد استغل المستعمرون هذا إلى أبعد الحدود من خلال الإكراه، والاستيلاء، والمفاوضة، والإقناع، والتعليم، وأقاموا هياكل سياسية، واقتصادية جديدة في المجتمعات المستعمرة.

---

(1) T.Asad. introduction, in T.Asad (ed.) Anthropology and the Colonial Encounter, Ibid., p. 17.

واستخدم الاستعماريون مفاهيم «العرقية»، و«الدين»، و«الثقافة» استخدامًا جيدًا من الناحية السياسية، فلم يضطروا للدخول في معارك مع المجموعات الخاضعة، ولكنهم حققوا أهدافهم بضرب مجموعة عرقية بأخرى، ويلاحظ أن المجموعة التي ساعدها الاستعمار كانت متعاونة معه، فمثلًا كان من السهل إثارة الهندوس والمسلمين في شبه القارة الهندية بعضهما ضد بعض من الناحية الدينية، وعندما فتح المستعمِرون، والمنصِّرون المدارس المختلفة، أو الكليات والجامعات في البلاد الإسلامية أُدخل تدريس مادة العلوم السياسية، وبذلك تم زرع المفاهيم السياسية الغربية، وكلها علمانية؛ إذ كانت تتكون من الأفكار السياسية كالدستورية، والديمقراطية، والبرلمانات، والأحزاب السياسية، والاشتراكية، والقومية... الخ.

ولو تطرقنا إلى مجال الاقتصاد؛ لوجدنا أن المستعمرات قدمت للمستعمرين أسواقًا استهلاكية في الحال، فقد أُخذت المواد الخام كالقطن والتبغ من المستعمرات، وصُنّعت في الغرب؛ لتصبح قماشًا وسجائر، ثم بيعت هذه المنتجات في الدول المستعمرة، وقد طُبِّقت المبادئ نفسها على نطاق واسع بعد الحرب عندما أُسِّست المؤسسات ذات الجنسيات المتعددة كالبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي لإعطاء هذه الدول من حيث انتهى الاستعمار القروض، وإجبارهم على الاستدانة، لقد أصبح كل العالم غير الغربي -بغض النظر عن كونه كان مستعمرًا أم لا- خاضعًا للنظام الاقتصادي الغربي، وفُرضت عليه أزمات الديون التي ما تزال هذه الدول تواجهها إلى اليوم[1]، وفتح ازدهار البترول في الشرق الأوسط أسواقًا جديدة، وبيعت التكنولوجيا، و«التصنيع» معلبة ببلايين الدولارات، وقد استخدمت ثروات النفط لدفع قيمة هذه المعلبات دون معرفة طريقة تصنيعها حتى إذا طرأ عليها عطل، فإن النظام كله يحتاج إلى استبدال.

(1) See: C.C. Carvounis, The Debt Dilemma of Developing countries, London: The Aldwych Press, 1984.



وابتكرت مفاهيم جديدة؛ لتبرير هذا الاستغلال الاقتصادي، فقد أوجدت العلوم الاجتماعية الحجة من أجل «التطور الاقتصادي»، و«التطور الاجتماعي» للدول النامية، ومرت العلوم الاجتماعية عندئذ بتغيرات سريعة، واستبدل «الاستشراق» الاستعماري، وعلم الأنثروبولوجي بـ«الدراسات الإقليمية»، حل هذا الفرع المعرفي الجديد المسمى -مثلًا- بالدراسات الشرق أوسطية محل الاستشراق؛ حيث ظهرت في أمريكا الشمالية بعد الحرب العالمية الثانية[١]، وفي الوقت الذي أخذت فيه دول الإمبراطورية الاستعمارية الأوروبية تتحرر من العبودية، وتحصل على استقلالها بدأت الولايات المتحدة الأمريكية توسع دائرة نفوذها في تلك المناطق؛ حيث أصبح ثمة فراغ أوجده كل من الاستعماريين البريطاني والفرنسي السابقين، وقامت الإمبريالية الأمريكية بغارات على الشرق الأوسط، وشمال أفريقيا، وجنوب غرب آسيا، ومنطقة الخليج، واحتاجت الإمبريالية الأمريكية إلى دراسات الشرق الأوسط، كما احتاج الاستعمار من قبل إلى الاستشراق؛ ليجيز تصرفاته بالإضافة إلى تزويده بمعلومات عن المنطقة، وقد برزت مجموعات جديدة من خبراء الشرق الأوسط مستعدة؛ لتقديم خدماتها للحكومة، وذلك من خلال المراكز المتعددة التي فتحت من أجل التحليل السياسي، والاقتصادي، والتخطيطي للدول الإسلامية، هذا العلم الذي أطلق عليه الدراسات الإقليمية ابتكر للمصلحة السياسية، وكما يقول أحد المختصين: إن «الدافع الأساسي في تطوير الدراسات الإقليمية في الولايات المتحدة الأمريكية كان سياسيًا»[٢]، وكان «الدافع السياسي الأساسي في الدراسات الإقليمية كسب النفوذ، ومحاربة القوى

---

(١) أعدت لجنة منبثقة عن ندوة الشباب الإسلامي في طرابلس بليبيا سنة ١٩٧٣م تحليلًا نقديًا للدراسات الإسلامية في جامعات أمريكا الشمالية، وكانت هذه اللجنة برئاسة البروفسور الحاج تعليم علي (T.B. Irving)، وتم تحديثها عام ١٩٧٥مز، وقد قمت بترجمتها إلى العربية، وهي دراسة جادة رصينة للدراسات الإسلامية من حيث عمقها ونتائجها.

(2) Leonard Binder, Area Studies: A Critical Reassessment in the study of the Middle East (ed.) Binder. New York: John Wiley&Sons, 1976, p. I.





المعاديــة في هذه المناطق»[١]، وتختلف الدراســات الإقليمية عن الاستشراق في أنها اعتمــدت «علــى فكــرة أساسية واحــدة، وهي أن هدف هــذه الدراســات الإقليمية هــو أن المعرفــة الحقيقيــة ممكنــة فقط حــول الأشيــاء الموجــودة بينمــا المناهج، والنظريات أمور تجريدية تتطلب ملاحظات، وتقدم التفسيرات وفقًا لتصنيف غير تجريبــي»[٢]، وقد استطاع علماء الاجتماع الإفــادة من هذا الأسلوب، ويمكن له أن يدير نفسه؛ ليناسب المصالح الخاصة بالباحثين، وكان السؤال المطروح عند علماء الاجتمــاع الغربيين هــو: إلى أي حد يمكن للعالم غير الغربــي أن يصبح متطورًا أو متغربًا؟

تعهــد عدد من المعاهد، والمراكز، والمؤسســات، والمنظمات بتقديم هذه الخدمة السياســية، فقد أسّس معهد الشرق الأوسط سنة ١٩٤٦م في واشنطن «من أجل أن ينمّي الاهتمام بين الشعب الأمريكي في الشرق الأوسط»، وأن يقدم «معلومات دقيقة وموضوعية» عــن هذه المنطقة[٣]، وكان البحث الــذي تولى المعهد القيام به مرتبطًا بالسياســة، ومؤيدًا لسياسات الحكومــة في الشرق الأوسط، وفي أوائل الخمسينيات من هذا القرن ألّف مجلس بحوث العلوم الاجتماعية لجنة للشرق الأدنى والأوسط؛ لتعمــل مع المجلس الأمريكي للجمعيات العلمية علــى تمويل، وملاحظة البحث حول الشــرق الأوســط، وأسّسَــت في أواســط الستينات مــن هذا القرن رابطــة دراسات الشــرق الأوسط (MESA)؛ لتشجيــع البحث والتعاون بــين الأشخاص والمنظمات المهتمــة بدراسة الشــرق الأوسط، فأسســت شبكة من العلمــاء في كل أنحاء العالم لإظهار المنظور المؤيد لأمريكا من خلال الكتب والمجلات[٤].

(1) Ibid., p. 2.

(2) Ibid., p. 13.

(3) The Middle East Journal. Washington DC: The Middle East Institute. Statement Printed on the last page of every issue.

(٤) لهــذه الرابطة دوريــة خاصة بها، كما إنها تقوم بإصدار عدد مــن المطبوعات من بينها دليل للباحثين الأعضــاء فيهــا في جميع أنحاء العالم مع تخصصــاتهم بالإضافة إلى عقد الندوات، والمؤتمرات المتخصصة.



وثمة مستخدم آخر رئيسي للتحليل الأكاديمي السياسي تمثل في الجيش الأمريكي، حيث إن اهتماماته، ونشاطاته، وتدخله في العالم الإسلامي كانت واضحة قبل الحرب العالمية الثانية، فتولت إدارة برامج التدريب الخاص في الجيش بإنشاء برامج تدريب على اللغات والدراسات الإقليمية في خمس وخمسين جامعة، بينما بدأت برامج تدريب للشئون المدنية في عشر جامعات أخرى[1]، وبالرغم من أن معظم هذه البرامج قد أوقفت في نهاية الحرب إلا أن الاستشراق كان يستبدل ببطء بالفرع المعرفي الجديد، وبعد الحرب أصبحت «المصالح الأمريكية الاقتصادية والسياسية قد ترسخت مما جعل تطوير الخبرة الفكرية لحماية هذه المصالح، وتقويتها أمرًا ضروريًا، ولا يمكن أن تترك لحفنة من المستشرقين»[2]، وركز مثل هذا الأسلوب الواقعي على الدراسات الوصفية لمناطق متعددة من العالم.

وتولت المراكز التي تعهدت بتلبية احتياجات الأمن القومي الهيمنة في الميادين الأكاديمية، وهذه المراكز هي: مركز الشئون الدولية (هارفرد)، ومركز الدراسات الدولية (برنستون)، ومركز دراسة السياسة الخارجية والحربية (شيكاغو)، ومعهد الدراسات الدولية (بيركلي)، وقامت هذه المراكز بأداء دور رئيسي في سياسة المصالح الأمريكية في العالم غير الغربي، وأبدى أحد خبراء الشرق الأوسط رضاه حول التطور الذي تم في الدراسات الإقليمية[3]، وبرز نظام من البرامج ينسجم مع هذه الدراسات، كما قامت مؤسسات من مثل كارنيجي (Carnegie)، وروكفلر، ومؤسسة فورد بتمويل مثل هذه البحوث[4].

(1) KJ.Milenberger, The Federal Government and the Universities. The Annals of the American Academy of political and Social Science, Vol. 356, November, 1964, p. 24.

(2) Middle East Studies Network. Washington DC: Middle East Research and Information project (MERIP), No. 38, 1975, p. 4.

(3) Manfred Halpern, «Middle East Studies: A Review of the State of the Field with a few examples». Journal of World politics, Vol. XV, 1962, pp. 118-22.

(4) MERIP Report. No. 38, p. 10.

ولما كانت كل من وزارة الخارجية، ووزارة الدفاع الأمريكتين المستفيدتين الرئيسيتين من هذه المعلومات حول العالم الإسلامي، فقد فقدمتا الملايين من الدولارات لمراكز البحوث التي نذكر عددًا قليلًا منها، مثل مؤسسة راند (Rand)، ومعهد التحليل الدفاعي، مركز التحليل للبحرية، ومكتب بحوث الموارد البشرية، ومركز البحوث في الأنظمة الاجتماعية، وقد تم تمويل دراسة هالبرن المشهورة (Halpern) من قبل سلاح الجو الأمريكي سنة ١٩٦٣م[1]، كما موّلت وزارتا الخارجية، والدفاع العقود لإجراء البحوث لدى العديد من المنظمات والأفراد.

لم تكن أمريكا هي القاعدة الوحيدة التي انطلق منها نظام شبكة دراسات الشرق الأوسط، فقد فُتحت مراكز بحوث في المعاهد التعليمية الأجنبية من أجل تقديم المعلومات، ووسائل التدريب الميداني للعلماء الأمريكيين، وأحد هذه المعاهد هي الجامعة الأمريكية في بيروت التي تأسست أصلًا من قبل المنصّرين، ولكنها خدمت فيما بعد مصالح الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط بيد أنها لم تكن كافية لمواجهة كل احتياجات المنطقة، لذلك أضيف إليها الجامعة الأمريكية في القاهرة، وواصل كل من مركز البحوث الأمريكي في القاهرة، وكذلك المعاهد الأمريكية في تركيا، والباكستان خدمة المصالح الإمبريالية الأمريكية، وقد صدر كتاب لآصف حسين بعنوان (الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل - سياسة العلاقات الخاصة)، ونشرته جامعة القائد الأعظم ينتقد فيه النفاق المفتوح في صداقة الولايات المتحدة نحو الدول الإسلامية، وقد منعت الحكومة الباكستانية تداول هذا الكتاب؛ لأنه يضر بالعلاقات بين الولايات المتحدة والباكستان، وبهذه الطريقة حتى الدراسات المعادية لأمريكا يتم حظرها[2].

---

(١) دراسة هالبرن هي: (سياسات التغير الاجتماعي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا).
Manfred Halpern, The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa. Princeton: Princeton University Press. 4th Printing 1907.

(2) Asaf Hussain, The United Stated and Israel: Politics of the Special Relationship. Islamabad: Quaid-e-Azam University, 1985.



لقد لُخِّصت طبيعة البحوث التي أجريت في أمريكا بذكاء على أنها «على الأصح أداة للإمبريالية، وليست عملاً معرفيًا موضوعيًا، وهي بالأحرى أداة للسيطرة على شعوب الشرق الأوسط أكثر منها أداة لتحرير هذه الشعوب من خلال فهم الذات والمعرفة، فالفرص المتاحة لإجراء البحوث التي تخدم شعوب المنطقة بدلا من مصالح الولايات المتحدة محدودة»[1]، وفي مثل هذه الحالة فإن الدراسات الإسلامية التي صدرت أدت إلى كثير من التشويه، وكما ذكر مراقب آخر بأن هذه الدراسات «تكون مصحوبة غالبًا بانطباعات سلبية تجاه العقيدة الإسلامية والذين يؤمنون بها»[2]، وهذه الانطباعات السلبية تعكس مرة أخرى التفكير النصراني المتعصب والاستشراقي.

ابتكرت العلوم الاجتماعية مصطلح «التحديث» بناء على التطور «التقني»، و«المادي» للحضارة الغربية، ويعرف هذا المصطلح بأنه «العملية التي تتلاءم فيها المؤسسات التي نشأت تاريخيًا مع المهمات المتغيرة بسرعة التي تعكس زيادة ليس لها سابق في علم الإنسان تسمح بسيطرته على بيئته، وكانت مصاحبة للثورة العلمية»[3]، وقام علماء الاجتماع بابتكار التصنيف ثنائي التقسيم بناء على هذه النظريات: فالمجتمعات الغربية صنفت على أنها «حديثة» بينما المجتمعات غير الغربية صنفت على أنها «تقليدية»، وكانت النظرة إلى التقاليد، والتحديث على أنهما قطبان متبادلان، فالمجتمع التقليدي منسوب إلى الأدوار المسهبة، والقيم الأحادية، والتوجه الجماعي، وسيطرة العاطفة، بينما المجتمع الغربي صاحب الإنجازات، والأدوار المحددة، والقيم الكونية، والاهتمام بالذات، والحياد العاطفي، وهذه المجتمعات غير الغربية التي قبلت هذا التصنيف تعد في المرحلة «الانتقالية» باتجاه «التحديث»، أما وسيلة هذا الانتقال، فهو المسلم المستغرب الذي يعدُّ «مفتاحًا لتغيير الشرق الأوسط، فهم اليوم في الممر مما كانوا عليه يومًا

(1) MERIP Report. No, 38, Op. cit., p. 20.

(2) Charles J.Adams, The Development of Islamic Studies in Canada. (ed.) by E.H.Waugh, et.al. The Muslim Community in North America. Edinonton: The University of Alberta Press, 1983, p. 195.

(3) C.E.Black, the Dynamics of Modernization. New York: Harper&Row, 1966, p. 8.

ما إلى الوضع الذي سيصبحون فيه»[1]، والنموذج الذي عليهم أتباعه هو الغرب الذي دُعي إليه عن طريق كتابات علماء الاجتماع الغربيين.

وفي الوقت الذي قدم فيه علماء الاجتماع نظريات التطور السياسي والاقتصادي دعا علماء الاجتماع الماركسيين إلى نظريات «التبعية»، وتعدُّ نظريات التبعية أن التطور والتخلف وجهان لعملة واحدة يكون فيها اقتصاد الدول المتطورة مشروطًا باستقلال دولة أخرى، وأكد دعاة هذه النظريات على التغييرات في التطور السياسي، وأكد الماركسيون التغير في التطور الاقتصادي الذي سيطرت عليه الإمبريالية من خلال الدول النامية، وكانت كل هذه النظريات طرقًا لفهم العالم الإسلامي[2].

وكانت البرهنة على النظريات أكثر أهمية من واقع الأحوال السياسية، وواجهت نظريات التحديث تراجعًا بسبب صحوة المسلمين في البلاد الإسلامية، وقدمت عدة تفسيرات لشرح «لماذا عاد الإسلام التقليدي؟»مرة أخرى، وهو المفروض أن يكون قد قُضيَ عليه في دول تمر بمرحلة التحديث، وفيما يأتي قائمة بهذه التفسيرات:

نظرية رد الفعل الإسلامية:

كان أحد الاتجاهات الغربية يرى أن الإسلام في حالة رد فعل لمجتمعات ما بعد الاستعمار، فالقوى الإسلامية لم تضعف بالرغم من أنها تجد غالبًا معارضة من القوميين العلمانيين الذين وصلوا إلى السلطة في مجتمعات ما بعد الاستعمار، وظهر حاليًا التحدي من هذه القوى التقليدية ضد قوى القومية، وقد أكد علماء آخرون أطروحة «الإحلال - التحول»هذه بأن أعلنوا أن ثمة أزمة ثقة في أصالة

---

(1) D.Lerner, The Passing of Traditional Society. New York: The Free Press, p. 75. Also see: L.C.Brown, «Stage in the Process of change»in C.A.Micaud, et. Al. (ed.), Tunisia: The Politics of Modernization. London: Pall Mall, 1964, pp. 3-68. Also see: D.A. Rustow, et. Al., Political Modernization in Japan and Turkey. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1964.

(2) Asaf Hussain, Political Perspectives on the Muslim World. London: Macmillan Publishing, 1984.



التغريب الذي كون جزءًا من الاستعمار، ورفض هذا كليّة بحجة أن الأصالة تستمد إلهامها من الإسلام.

نظرية الدفاع الإسلامية:

وثمة اتجاه آخر في التفكير الغربي يرى أن الإسلام في موقف الدفاع، وأن عنفه مستمدٌ من إرادته حماية نفسه من الفناء، فقد جعلت حملات الهجوم التي قادها المستشرقون ضد الإسلام العلماء المسلمين يتخذون الأسلوب الاعتذاري في دفاعهم عن مجدهم، ولقد أدى هذا الأسلوب الاعتذاري إلى أن يتجه كثير من المفكرين الإسلاميين إلى الهجوم، ولكن مثل هذا التفسير ينقصه العمق، ومع ذلك فسواء كان الأمر دفاعًا أو هجومًا إلا أنه لا يمكن أن يقود ثورة يجب أن يكون لها قاعدة مبدئية؛ لتقدم مسارًا فكريًا يقدم حياة أفضل من تلك التي تقدمها الأيديولوجيا الرأسمالية والشيوعية.

نظرية الأزمة الإسلامية:

يرى فريق من المنظرين الغربيين أن المجتمعات الإسلامية تمر بحالة من الأزمة بسبب التطور السريع، والتخلف الاقتصادي، ولأن قادتها أيضًا فاسدون مما ترك الجماهير، والطبقة المتوسطة الدنيا في حالة إحباط وضياع، كما نمت أزمة الشرعية السياسية في هذه المجتمعات، ولم تنجح محاولات الحكام المسلمين في التظاهر بالإسلام؛ لاستغلال الإسلام من أجل أهداف سياسية مما أدى إلى تطور المشكلات.

نظرية الاقتصاد الإسلامية:

يعتمد التفكير الماركسي، والماركسي الجديد على الحقيقة أن ازدهار الثروات النفطية في البلاد العربية منذ السبعينات من هذا القرن قد أطلقت الصحوة الإسلامية، كما أوجدت طبقة برجوازية جديدة، وأجبرتهم على الابتعاد عن الدين، فالمشكلة إذن بين المادية، والإسلام بصورة أساسية.

النظرية الثقافية الإسلامية:

يختــار التفسير الثقافي للإســلام الثقافة بصفتها المفهــوم المركزي الذي ينمو الإســلام حولهــا، وحيث إن الثقافـات الإسلامية تمر بتغيرات مــن جيل إلى الجيل الــذي يليه كذلك سيتغـير الإسلام من الحالة التقليديــة إلى التحديث، ولكنه حتى الآن في مرحلة الانتقال، وهكذا مع مرور الوقت سينتهي الإسلام.

نظرية الهوية الإسلامية:

يجــادل بعض المنظرين المسلمين بأن المجتمعات الإسلامية لم يتم اختراقها من قبل قيم، ومبادئ أجنبية فقط، ولكن أيضًا بالأيديولوجيات الغربية مثل الشيوعية، والاشتراكيــة، والقوميــة، والديمقراطية، وقــد أدى هذا إلى أزمــة هوية بين الجيل الجديــد، وأثار كثيرًا من الأسئلــة المزعجة في عقولهم مثل: هل أنا أولًا ديمقراطي؟ أو هــل أنــا شيوعي أو اشتراكــي أو قومي ثم مسلــم ثانيًا؟ إن الإصــرار القومي من الصحــوة الإسلامية نتيجة لهذا جعــل الشباب يختار الهوية الإسلامية، ومن خلال هوياتهــم قاموا بجعل الأيديولوجية الإسلامية هي ذاتهم، وهي التي تحدث القيادة السياسية في بلادهم.

النظرية الإسلامية في معاداة الامبريالية:

تصور نظرية غربية أخرى المشكلة في إطار كوني، فلما أبقى البناء الاستعماري الجديد، والامبرياليــة العالم الإسلامي في حالة من التبعية شعر كثير من المسلمين بأنهــم أصبحوا لا حيلة لهم وغرباء، ولكن الإســلام أنقذهم، وألهمهم بأخذ الراية الحربيــة، ومقاتلة تلك القــوى، إن مثل هذه الحرب موجهة نحــو القيادة السياسية لبلادهم التي أصبحت دمًى للقوى العظمى، وباعت مصالح شعوبها.

النظرية التاريخية الإسلامية:

وثمــة طريقــة أخرى حاول بهــا العلماء فهــم الصحوة الإسلاميــة، أو الانبعاث الإسلامــي، وهي: اعتبار الإسلام دينــًا تاريخيًا، أسس المجتمع الإسلامي الصحيح في وقت معــين في التاريخ، وكان لــكل (إمبراطورية) ظهورهــا وانحدارها، وأصبح التاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامية في حالة انحلال في القرن الحالي، وعمومًا فقد خضعت آراء علماء الاجتماع هذه لنقد حاد، فيرى أحد العلماء أن مفاهيمًا مثل



«التطور»، أو «التحديث» يجب إعادة فهمها بما تعنيه: مجاز، صور شاعرية، أدوات اختزال، تجريد، وإن كان لها أهمية في التعريف، أو التحديد، أو وصف الواقع، ولكن هذا يجب ألا يختلط بالواقع نفسه، إنها ليست أدوات مجازية بكل القيود لوصف الواقع التي تتضمنه، ولكنها مجازات غريبة، والتي قد يكون أو لا يكون، (والأغلب لا يكون) لها علاقة بالعالم غير الغربي[1]، كل هذه الأخطاء تنطلق بين العلوم الاجتماعية الغربية؛ لأن «المشكلة بأننا لا نفهم، ولا نريد أن نفهم الحركات التي تسير عكس المفهوم الغربي للتغيير، نحن نؤمن حقًا بكل من حتمية، وشمولية المفهوم الغربي حول كيفية اتجاه التغيير إلى الأمام بطريقة مناسبة. إن الأفكار المركزية الأوروبية التي نحملها نحن علماء الاجتماع، وصانعوا السياسة نحملها في عقولنا ما تزال هي المفاهيم التي تبنى عليها افتراضاتنا بخصوص التحديث، والتطور في العالم الثالث»[2]، وعندما يفتح مثل هذا النقد الصادق عقول علماء الاجتماع الغربيين إلى الواقع الراسخ في الثقافة السياسية، والاجتماعية للمجتمعات الإسلامية لا يعتمد على عنصر الوقت، ويمكنه فتح عقولهم ليس فقط إذا ظهر النقد بصورة متكررة، ولكن أيضًا لابد من ظهور بناء مضاد للعلوم الاجتماعية الإسلامية لتوجيه وتقديم التفسيرات المفيدة للعالم الإسلامي[3].

(1) Howard Wiarda, Ethnocentricism in Foreign Policy: Can we understand the Third World. Washington DC: AMERICAN Enterprise Institute for Public Policy Research, 1985, p. 12.

(2) Ibid., p. 34.

(٣) ما تزال الصحوة الإسلامية هي محور الدراسات الأكاديمية، ومحل الاهتمام لدى الدوائر السياسية الغربية، ولابد من الإشارة هنا إلى محاضر جلسات مجلس الكونجرس الأمريكي التي عقدت في يونيه وسبتمبر ١٩٨٥م؛ لدراسة الصحوة الإسلامية، ونشرت في كتاب بلغت صفحاته ٤٤٣ صفحة، وقامت مجلة «المجتمع» الكويتية بنشر كثير من محتويات هذه المحاضر، والتعليق عليها بقلم الدكتور أحمد إبراهيم خضر ابتداءً من العدد ٩١٤ في ٢٠ رمضان ١٤٠٩هـ (٢٥ أبريل ١٩٨٩م)، والمحاضر نشرت بالإنجليزية بعنوان:

Islamic Foundation and Radicalism: Hearing before the Sub-committee on Europe and Middle East of the Committee of Foreign Affairs, House of Represquntadires of 990 Congress, June 24, July 15, Sept 30, 1985.

وقد نشر المترجم دراسة موجزة لهذا الأمر في كتاب بعنوان: الغرب في مواجهة الإسلام: معالم ووثائق جديدة – المدينة المنورة: مكتبة ابن القيم، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

الاستنتاج:

لقـد كان أسلوب العلـوم الاجتماعية عمومًا علمنة الإسـلام، وفصل الدين عن السياسـة، إنهـم يغرفون أنّه إذا مـا تم فصل الإسلام عن السياسـة، فسيكون من اليسير تنفيـذ النماذج السياسيـة، والاقتصادية الغربية في الـدول الإسلامية، إن مثـل هذه النظريات والمناهـج تعد فعالة إذا ما استخدمت في الغرب، ولكن لا يمكن استخـدام المقاييس نفسها في دراسة المجتمعات الإسلامية، ولكن كانت الخطة هنا التغلغـل في عقـول المسلمين بأفـكار علمانية، وإحدى هذه الأفـكار التي نجحت هي «القوميـة»، فقـد دمرت الأمة الإسلاميـة عن طريق الصراعـات القومية الطابع، وقد بنت هذه الدول بعد حصولها على «الاستقلال القومي» من القوى الاستعمارية كل تطورهـا السياسي والاقتصـادي على النموذج المستخدم من قبـل مُسْتَعمِريهم السابقين، ولم تنجح أي من هذه الدول التي كانت مُسْتَعمَرَة أن تُحَرِّر العقل المسلم، وهذه العقول غير المحرَّرة ستظل مستعدة لاستقبال الأفكار الغربية ليس فقط حول القوميـة، ولكـن الأيديولوجيـات الأخرى مثـل: «الديمقراطيـة»، و«الاشتراكية»، و«الأحـزاب السياسيـة»، والمفاهيـم الأخـرى التعليميـة، والإداريـة، والقضائية، والشرعية.



الفصل السابع

الإعلام وقصور الإعلام

تعهـدت الأكاديميات العلميـة بأن تختـار الصفوة من المثقفـين بينما احتاجت الجماهـير الغربيـة شيئًا أسهـل لهضمه، وقد مـلأت وسائل الإعـلام الغربية هذه الفجـوة؛ ونظـرًا لأن معظم النـاس لديهـم الوقت ليقرؤوا أو علـى الأقل يُلقوا نظرة عجلـى على الصحف في أثناء جلوسهـم، أو سفرهم، فقد أصبحت الصحافة أقوى وسيلـة تقدم عبرها المعلومـات، وبالإضافة إلى ذلك فالأسـرة الغربية في المتوسط تستطيـع امتلاك جهاز راديو، وجهاز تلفزيون، ولذلك أصبحت الأخبار أقوى وسيلة لتحريـك الرأي العام، ونتيجة لذلك أصبحـت وسائل الإعلام أداة رئيسية في أيدي الجهات المهتمة سـواء كانت هذه الجهات حكومية، أو مجموعات خاصة، أو أحزابًا سياسية لاستخدامها في الدعاية، وبعبارة أخرى: أصبحت وسائل الإعلام الطريقة التـي يمكن أن يُرى العالم من خلالهـا، وهي أيضًا سلاح يمكن استخدامه بسهولة، وقد توجه القائمون على هذه الوسائل للكسب السياسي والاقتصادي؛ لأنه من خلال وسائل الإعلام تستطيع أن تجعل الجماهير تؤمن بأي شيء.

إن أولئـك الذين يسيطرون علـى وسائل الإعلام هم نتـاج ثقافتهم، وما دامت الثقافـة الغربية بعامة معادية للإسلام، فهـل يعقل أن يكون الإعلاميون مختلفون؟ إنّهـم عدائيون كما هو حال علماء الاجتماع في تناولهم للإسلام وللعالم الإسلامي، ويمكـن لوسائل إعلامهم أن تقوم بمهمة تعديل نظرة الجمهور على نطاق واسع، إن موضوعية وسائل الإعـلام في الحقيقة ضرب من الخيال، لقد اعتقد معظم الناس أن ما يقال في وسائل الإعلام–الصحف والإذاعة والتلفاز– هو الحقيقة، ولكن عددًا قليـلًا جدًا من الجمهور توقف؛ ليفكر فيما إذا كان وسائل الإعلام فيها سياسة، أو ذات توجـه سياسي، أو تتعرضـ لأي قيود مفروضة عليهـا، وخلاصة هذا النقاش: هـو أن وسائل الإعـلام ليست حرة، وما تزال تعاني من عدد من القيود، وفيما يأتي سنقـدم ثلاث حالات دراسية لتوضيـح طبيعة هذه القيود، وأول هـذه الأمثلة يهتم بالتغطيـة الإعلامية بالإسلام عمومًا، والثاني الصراع العربي الإسرائيلي، والثالث حول إيران.



التغطية الإعلامية للإسلام:

عُرف ادوارد سعيد بنقده للاستشراق حيث ورد ذكره في فصل سابق، ولكن سعيد كتب دراسة أخرى بعنوان: (التغطية الإعلامية للإسلام: كيف تقرر وسائل الإعلام الصورة التي يجب أن نرى فيها بقية العالم)، وهي دراسة ممتازة تظهر كيف تعرض وسائل الإعلام الغربية التعصب ضد الإسلام؟ ويعلق الباحث من خلال تأثره بدراسة ادوارد سعيد قائلًا: «لم أستطع أن أكتشف أي فترة في التاريخ الأوروبي، أو الأمريكي منذ القرون الوسطى نوقش فيها الإسلام، وفُكِّر فيه خارج إطار العاطفة، والتعصب، والمصالح السياسية»[1]، وقد أكدت هذه الدراسة الحقيقة التي توصل إليها سعيد، والإسلام في الحقيقة في السياسات العالمية مصطلح مُثْقَلٌ بالقيم، ووفقًا لسعيد لقد جُعِل الإسلام «كبش فداء»لكل شيء: «فبالنسبة لليمين يمثل الإسلام البربرية، وبالنسبة لليسار يمثل الحكم الديني القروسطي، أما التيار الوسط: فهو نوع من الأشياء الغريبة سيئة الذوق، وثمة اتفاق بين كل الأطراف على أنه بالرغم من القليل المعروف عن العالم الإسلامي، فهناك الكثير الذي يمكن الموافقة عليه فيه»[2]، فإن كانت الحالة كذلك فكيف يمكن للإسلام أن يتلقى تغطية عادلة في وسائل الإعلام الغربية؟ سيكون ذلك بلا شك تفكيرًا خياليًا حالمًا؛ لأنه ينظر إلى الإسلام على أنه تهديد للعالم الغربي بينما ينظر للحضارات العظمى الأخرى في الشرق، والهند، والصين، وغيرها على أنها مهزومة، وبعيدة وبالتالي لا تشكل قلقًا مستمرًا، وعلى ذلك فالإسلام وحده لم يخضع أبدًا للغرب خضوعًا كليًا»[3]، وكانت تجربة الغرب مع الديانة الرئيسية فيه -النصرانية- أنه انتصر عليها، وهذا عزز ثقته في قوته، وفي تفوق أيديولوجيات التحديث، لقد آمن الغرب بفكرة مفادها أنه سيأتي زمن تنهزم فيه كل الأديان تحت تأثيره، ولكن هذا لم يحدث، وما كان هذا إلا ليزيد من العداء

(1) Edward Said, Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How we see the Rest of the World. London: Rout ledge & Kegan Paul, 1981.

(2) Ibid., p. xv.

(3) Ibid., p. 5.

ضد الإسلام، وفي ذلك يقول ادوارد سعيد: «يُعَرَّفُ الإسلام سلبيًا على أنَّه الدين الذي بينه وبين الغرب عداءٌ متطرفٌ مما جعل هذا التوتر يفرض قيودًا شديدة في سبيل معرفة الإسلام، ومادام هذا الإطار موجودًا، فالإسلام بصفته تجربة حيوية يعيشها المسلمون لا يمكن معرفتها»[1]، وهذا مبدأ صحيح، ذلك أن العداوة توجد الكراهية، وليس التقمص العاطفي للموضوع، إنها توجد التحيز في عقل الكاتب الغربي تجاه الإسلام حتى قبل أن يبدأ النظر في الحقائق، ولكن وسائل الإعلام ليست خالية من الضغوط، كما يقول ادوارد سعيد، وعلى ذلك فيمكن لهذه الوسائل أن تستخدم مصطلحات مثل «الموضوعية»، و«الصدق»، و«التغطية الواقعية»، و«الدقة»، ولكنها كلها «مصطلحات نسبية»، إنها تعبر عن نيات ربما، ولكنها لا تعبر عن أهداف قابلة للتحقيق[2]، وعندئذ فكل التحقيقات حول الإسلام، وبخاصة التي تقدمها وسائل الإعلام الأمريكية موجهة للدفاع عن إسرائيل التي ينظر إليها على أنها «بمنزلة معقل الحضارة الغربية وسط (بكثير من الاستحسان، وتهنئة النفس) الأدغال الإسلامية. وثانيًا: لقد أصبح أمن إسرائيل في نظر الأمريكيين قابلًا للتبادل بطريقة ملائمة مع أبعاد الإسلام، واستمرارية السيطرة الغربية، وإبراز فضائل التحديث»[3]، وتناقش دراسة ادوارد سعيد حالة التحقيق حول إيران، ولكن مفهومه حول إسرائيل من قبل الغرب يظهر كيف أن عرض الغرب منحرف دائمًا.

النزاع العربي الإسرائيلي والإعلام:

ما تزال التغطية الإعلامية للشرق الأوسط، والعرب، والنزاع العربي الإسرائيلي، والفلسطينيين غير عادلة، وقد توصلت العديد من الدراسات إلى الاستنتاج نفسه، ومن الممكن الآن رفض تصديق هذه الوسائل؛ لأنها تحمل عددًا ضخمًا من الأدلة والبراهين على تحيز الإعلام، فقد أشارت دراسات تحليل المحتوى لثلاث

---

(1) Ibid., p. 55.
(2) Ibid., p. 146.
(3) Ibid., p. 31.



صحف أمريكية هي نيويورك تايمز (New York Times)، ولوس أنجلوس تايمز (Los Angeles Times)، والـواشنطن بوست (Washington Post)؛ حيث أظهرت هذه الصحف عمومًا لهجة مؤيدة لإسرائيل عند تغطيتها للنزاع العربي الإسرائيلي، فقد أيدت هذه الصحف جميعها إسرائيل خلال الصراع العربي الإسرائيلي عام ١٩٦٧م، ونادت بأن على أمريكا ألا تؤيد إسرائيل دبلوماسيًا فحسب، بل عليها أن تمد إسرائيل بالمساعدات العسكرية(١).

وأجرت دراسة أخرى مقابلات مع عدد من الصحافيين، والكتّاب الأمريكيين، والكتبة الذين تعاملوا مع الأخبار المتعلقة بالشرق الأوسط من خلال صحف مثل: واشنطن بوست، ومن خلال المؤسسات التليفزيونية مثل: إن.بي.سي (NBC)، واي بي سي (ABC)(٢)، وقد أشارت إجاباتهم على عدد من النقاط أن ثمة إجماع عام.

أولًا: وافق الصحافيون على أنه إذا وجد هجوم على إسرائيل، أو سياساتها، فإنّ اليهود يستقبلونها على أنها «معاداة للسامية»، ولو وصف شخص بأنه «معاد للسامية»، فمعنى ذلك أن يَصف الشخص نفسَه بأنه تابع لعصابة النازيين المجرمين، وهذا التهديد، وهو: أن يوصف الإنسان بأنه معاد للسامية كَبَح أيَّ نقد لإسرائيل، وعلى العكس فإن الأسلم أن يأخذ موقفًا صريحًا في تأييد إسرائيل متناسيًا عمدًا صحة، أو خطأ هذا العمل، ويتم ذلك غالبًا بحسب الطريقة التي تعد بها الأخبار، فمثلًا: وصف هجوم فلسطيني على إسرائيل بأنه عمل إرهابي بينما غارات إسرائيل ضد الفلسطينيين -أو على لبنان- وصفت بأنها انتقام، وبهذا العمل تكون وسائل الإعلام قد صنعت نوعين مختلفين من الصور، ومعنى هذا على

(1) Charles H.Wagner, Elite American Newspapers, Opinion and the Middle East. Commitment versus Isolation in W.A.Stirling (ed.). The Middle East: Quest for and American Policy. Albany N.Y: State University of New York Press, 1973, pp. 314-317.

(2) Edmund Ghareeb, «On American Media and the Palestine Problems» in Journal of Palestine Studies. Vol. v, nos. 1-2, (1975-1976). Pp. 127-149.

حد قول أحد الصحفيين أن «لا تذكر الفلسطينيين»، وأي شخص يروي قصة هؤلاء الملايين من اللاجئين المتروكين بعيدًا في الصحراء، أو أي مكان آخر، إنه بمجرد الرواية سيثير شعورًا حول هؤلاء الناس، لذلك فهم لا يحاولون أن يرووا القصة الفلسطينية، فيتكلمون عن الفلسطينيين على أنهم إرهابيون، وليس على أنهم شعب[1]، وهذا الأمر يجعل القارئ في شك كيف تستطيع وسائل الإعلام المحافظة على بقاء هذه الصورة المزيفة للفلسطينيين على أنهم «إرهابيون»وليسوا شعبًا؟

ثانيًا: يرى بعض الصحافيين أن ثمة خلافات ثقافية بين العرب والإسرائيليين، وهذا هو سبب الخلاف كله في التغطية الإعلامية، ونظرًا لأن الإسرائيليين من «أصول أوروبية»، فهم بذلك «يمتلكون إحساسًا متقدمًا بالعلاقات العامة، فهم يعرفون كيف يلعبون لعبة العلاقات العامة، وكيف يتكلمون لغتنا، إنهم يعرفون كيف نستخدم العقل، وهم قادرون على الإفادة[2] من ذلك». هذه الإجابة التي قدمها الصحافيون ضعيفة؛ لأنها تفترض بأن العرب لو استطاعوا استخدام المهارات نفسها، كما اليهود فإنهم سيحصلون على فرص متساوية، هذه مغالطة، فعدد العرب في أمريكا ليس قليلا، ومع ذلك فإنهم لم ينجحوا، وبالتالي فالصحافيون يخلطون بين الإسلام والعنصرية، فالأمر ليس لأن الإسرائيليين من أصول أوروبية، فهم يحصلون على تغطية إعلامية أفضل، إن السبب هو أن «العامل الثقافي»إسلامي، وهذا هو السبب الذي جعل أحد الصحافيين يقول بكل وضوح: بأن الأمر «سيستغرق وقتًا طويلًا حتى يفهم الأمريكان، ولكي يترك الأمريكيون الصور الجامدة عمومًا التي يحملونها عن العرب»[3]، هذه الصور الجامدة كما ذكرنا سابقًا تنبعث من أساطير، ومغالطات حول الإسلام، والشعب الإسلامي أي شيء سلبي حول الإسلام يُعَدُّ «أخبارًا». أما ما يُكَوِّن «الأخبار»، فيعتمد ليس على قرارات محرري الأخبار، ولكن أيضًا على الجمهور الذي تُقَدَّم له، وعند السؤال

(1) Ibid., p. 149.
(2) Ibid., p. 132.
(3) Ibid., p. 132.



عن السبب الذي دعا إلى إرسال مراسلين لتغطية الحرب العربية الإسرائيلية سنة ١٩٧٣م إلى الجانب الإسرائيلي فقط، كانت الإجابة: أن سبب ذلك هو وجود عدد كبير من اليهود في المدن الكبرى حيث يوجد جمهور مستقبل لما يحدث في إسرائيل ورد الفعل الآلي لمحررينا أنهم ينظرون إلى المسألة من زاوية ماذا يريد القراء أن يعرفوا؟ وماذا كانوا يريدون أن يعرفوا هو: كيف عملت إسرائيل؟ فمن الواضح أن معيار الموضوعية الصحافية قد تم التنازل عنه من أجل الجمهور، والذي لم يكن الجمهور يريد معرفته لا يُعَدُّ أخبارًا[١].

وقامت دراسة أخرى بفتح الافتتاحيات المتعلقة بالشرق الأوسط في إحدى عشرة صحيفة أمريكية كبرى[٢]، وهذه الصحف هي: نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، وشيكاغو تريبيون، ولوس أنجلوس تايمز، ودنفر بوست، وأتلانتا، وكونستيوشن، وكريسشان سينس مونيتور، وسينت لويس بوس دسباتش، ووول ستريت جورنال، ولوي فيل كورير جورنال، ودلاس مورنينج نيوز، وكانت فترة التغطية من يناير ١٩٦٦م حتى ديسمبر ١٩٧٤م، وقد رسمت نتيجة الدراسة خريطة الاتجاهات العامة الموجودة في محتويات الافتتاحيات لهذه الصحف.

أولًا: سلطت الأضواء على النزاع العربي الإسرائيلي خلال حرب ١٩٦٧م، ولكن قبل ذلك وبالرغم من الأزمة اللبنانية سنة ١٩٥٨م إلا أن اهتمام تلك الصحف تركز حول موضوعات أخرى مثل الحرب الباردة، وأزمة برلين، وأزمة الصواريخ في كوبا، والكونجو، ولاوس، وغزو جمهورية الدومنيكان، وفيتنام.

ثانيًا: ازدادت تغطية وسائل الإعلام للشرق الأوسط خلال الفترة المتعهد بها في وقت «الأزمة» مثل مشروع روجرز، والهدنة المصرية الإسرائيلية... الخ. ولا يعني هذا أن وسائل الإعلام أهملت الشرق الأوسط في أوقات أخرى، ولكن ذلك يبرهن

(1) Ibid., p. 138.

(2) R.Trice, The American Elite press and the Arab-Israel Conflict. The Middle East Journal. Vol. 33, No. 3 (1979), pp. 304-325.

الـرأي القائل بأن وسائل الإعلام أعطـت اهتمامًا أكبر لتلك المشكلات التي وصلت في نظرها مرحلة «الأزمة»، وفي مرحلة «اللا أزمة»يمكن أن يكون أي موضوع مهم في غير مصلحة فيما يتعلق بالتغطية الإعلامية(١).

ثالثًا: كان الاتجـاه أن «المحرريـن الأمريكيـين كانـوا أكـثر تأييـدًا لإسرائيل منهم للـدول العربية، «وكانت الافتتاحيات تميل إلى نقـد تصرفات الفلسطينيين، والفرنسيين، والسوفيت، ومواقفهم السياسية»(٢).

كانت تغطية الإعلام الغربي للغزو الإسرائيلي للبنان ١٩٨٢م حالة أخرى لفقدان الموضوعيـة في وسائـل الإعلام، فبينمـا بلغ عدد القتلـى من المسلمـين اللبنانيين، والفلسطينيين أربعة عشر ألفًا وستين ألفًا من الجرحى، وعشرة آلاف سجين، وستين ألـف مشـرد بلا مأوى أصرت وسائـل الإعلام الغربية على حاجـة إسرائيل -مهما كان الثمـن الإنسـاني- للأمن خلال غزو إسرائيل للبنان سنـة ١٩٨٢م الأمر الذي دعـا أحد المراقبين إلى القول «من المدهش أن الإصابات التي تعرض لها اللبنانيون لا تذكـر إلا قليـلًا في الإعلام الأمريكـي، أو الحكومة الأمريكيـة»(٣)، لقد أصبحت مسألـة الموضوعيـة الإعلامية بالنسبة للبنـان واضحة بشكل مدهـش، وقد تساءل أحـد المراقبين هل «من العدل أن تكون التغطيـة الإخبارية محكومة بالطرف الذي يستطيع أن يقدم بيانات صحافية بسهولة، وجولات في المعركة، وفرصًا للمقابلات أو التصوير؟ هل تنفي سهولة توفر المعلومات الجاهزة واجب الصحافة في البحث عن مصادر أخرى؟ ومع ذلك فإن عدد أولئك الذين يواصلون الاعتماد على آلة الدعاية الإسرائيليـة في كل مـن الولايات المتحـدة، والشرق الأوسط قد أعاقـوا الموضوعية الأساسية في إعـداد التقارير، وظهور الصور الحقيقية للناس، والأحداث في العالم

(1) E.Epstein, Between Facts and Fiction: The Problem of Journalism. New York: Vintage Press,.1975.

(2) R.Trice, Ibid., p. 12.

(3) T.Rubin, The Censored Price of War. The Christian Science Monitor, June 16th 1982.

العربي»[1]، ولم يوجد مراسل واحد يرى أن ما فَعَلَته أمريكا حينما زودت إسرائيل بالقنابل العنقودية التي تسببت في الدمار بين المواطنين المدنيين أمرًا يستحق ذكره وكتابته، ولم يتساءل أحد عن التصرفات غير الإنسانية للإسرائيليين في رفضهم السماح للإمدادات الطبية الطارئة للدخول إلى المناطق المتضررة بالحرب، بل على العكس كان ثمة تأكيد لحق «إسرائيل» في حماية شعبها[2]، ولم يتقدم أحد ليثير السؤال الطبيعي جدًا، وهو: ما هي كمية العنف الصريح المسموح به في القانون الدولي؟ بل إن إحدى الصحف وجهت اللوم للعرب بقولها: «هل يمكن أن يكون العرب هم الذين أوجدوا المشكلات الفلسطينية كسلاح لتدمير إسرائيل؟»[3]، ومع ذلك فثمة جانب آخر تمثل في أن القصف الذي قامت به البحرية الأمريكية ضد السكان المدنيين في لبنان سنة ١٩٨٣م لم يكن ليثير أي اهتمام. كيف يمكن لحادثة من المفترض أن تكون مليئة «بالأخبار» ويمكن تجاهلها؟ كيف يعقل أنه لم يكن أي صحافي مرابط في بيروت، أو في أي دولة مجاورة يمتلك الشجاعة، فيزور جبل الشوف ليطلع على التدمير الذي حدث للمنطقة، والخراب، والمآسي التي تسبب فيها هذا القصف ضد المدنيين، لو كان المسلمون هم الذين قاموا بالقصف، أو الفلسطينيون ضد المارونيين، أو الإسرائيليين، فسيلقى ذلك بالتأكيد تغطية واسعة، ولكن مادام الهجوم ضد المسلمين، فليس ثمة تغطية إعلامية لإظهار الحقيقة، ولكن ينشر ما يمكن أن يهم القراء، عندما أرسل توماس ال. فردمان (Tomas L. Friedman) رئيس مكتب جريدة نيويورك تايمز في بيروت تقريره أصيب بالدهشة؛ ليجد كلمة «بدون تمييز» محذوفة من مقالته حول القصف الإسرائيلي، اتصل بجريدته ليكتشف أن المحرر كان خائفًا من إخبار القراء بالحقيقة، وقد عد

(1) mary McDavid, Media Myths of the Middle East: The US Press on the war in Lebanon in Edward Ghareeb (ed.), Split Version: The Portrayal of Arabs in the American Media. Washington D.C. American Affairs Council, 1983, pp. 300-301.

(2) See: Editorial, The Fighting in Lebanon, The Washington Post, June 7th, 1982.

(3) The Chicago Tribune, Quoted in Mary McDavid., Ibid.





المراسل هذا العمل أمرًا منافيًا لمبادئ المهنة تمامًا»[1].

ركـزت معظـم الصحف على جانب واحـد فقط من الحدث، وهـو تبرير الغزو الإسرائيلي، فقد كتب مراسل جريدة واشنطن بوست بأن «الهدف المعلن» لإسرائيل هـو تخليص منطقة الحـدود من الفلسطينيـين، هدف إسرائيـل كان فقط تحرير لبنـان مـن «تهديد الإرهـاب»، وجادل في إحـدى رسائله الصحافيـة بأنه بالرغم مـن أن النـيران الإسرائيليـة قد قصفـت منطقة الدامـور بعنف، فـإن اللبنانيين قـد تعرضـوا «لسنوات عديدة من الحـرب الأهلية الوحشيـة»، ووصف جون كودي (June Cody) مراسل واشنطن بوست: كيف «كان سكان الجليل معرضين للهجوم بصواريـخ منظمة فتح وبـرر استيلاء إسرائيل على أسلحـة الفلسطينيين التي كان هدفهـا «التدمير النهائـي لإسرائيل»؟ وكتب كودي أيضًا عن عجز لبنان قبل وجود الفلسطينيـين، وكتب جوناثان رانـدل (Jonathan Randal) مـن جريدة واشنطن بوسـت أن قنابل عنقودية قـد أصابت مستشفى، ولكن ليس هنـاك «دليل» على أن الإسرائيليـين هم الذين فعلوا ذلك؛ حيث كان السوريـون قريبًا من المنطقة، وربما كان ذلـك خطـأ حربيًا، وكتب ديفيد اوتـووي (David Ottoway) أيضًا في جريدة واشنطـن بوست بأن حصار إسرائيل لبيروت ليسـ موجهًا ضد المواطنين المدنيين، بـل هو ضد «المعاقل المتبقية للفدائيين الفلسطينيين»، ودافع ديفيد شيبلر (David Shipler) عـن الإسرائيليين بكتابة تقرير في جريـدة نيويورك تايمز ذكر فيه كيف أصبـح الفدائيـون الفلسطينيون تحت قيادة فتح «جيشًا» خطـرًا وكربًا على لبنان. وكتـب مراسل آخر هو: وليام فارل (William Farrell) من جريدة نيويورك تايمز عـن قصـة «السنوات السبـع من العنف والقتـل» في لبنان، وكيـف قدمت «الزهور والمرطبات» للجنـود الإسرائيليـين؛ لأنهـم استُقبلـوا بترحـاب علـى أنهـم محررو المارونيـين النصـارى. وكتب فريدمان في نيويـورك تايمز: أنَّ هـدف الإسرائيليين هـو ملاحقة «المركـز العصبي» لمنظمة فتح، وقد أخبر مراسلـو الـ واشنطن بوست

(1) Roger Morris, Beirut and the Press under Seige. Columbia Journalism Review, November/December, 1982, p. 24.



مـن أمثال: أوتـووي، وراندال، وكليربورن، وكودي قرائهـم بأنه من الصعب تحديد عـدد الإصابات؛ حيـث لا يوجد «مصدر مستقل»لتأكيدهـا فيما وصفت الصحيفة الإسرائيليـة (جروسلم بوست) بأن التغطية الإعلامية الأمريكية على أنها «خلاعة سياسيـة»، ولاحظت جريدة بوسطن جلوب (Boston Globe) بأنه كان هناك قلق حـول تغطية الإعـلام لإسرائيل، وهذه التغطيـة تؤكد بوضوح أسطـورة الموضوعية الإعلاميـة، وكما لاحظ موريس (Morris) أن هذه التغطية تميل إلى الإسرائيليين، والمارونيـين «بكل القوة المطلقة والاتسـاع»، إن الآراء التي أثيرت أثناء تغطية الغزو الإسرائيلي ليس لها إلا أمثلة قليلة جدًا في التاريخ الصحافي[1].

التغطية الإعلامية لإيران:

ثمـة حالة أخرى مـن التحيز الإعلامـي، والتي أصبحت برهانًـا صريحًا، وهي التغطيـة الإعلاميـة للثورة الإسلامية في إيران؛ حيث لم تحصـل إيران على تغطية إعلامية عادلة منذ سنة ١٩٧٩م، وهي حالة جيدة للدراسة؛ لأن التغطية لآل بهلوي كانـت إيجابية جـدًا، وكان الفـرق واضحًا بين إيـران الإسلامية، وإيـران في عهد البهلوي؛ حيث كان البهلـوي علمانيًا، ومضامين هذا الأمر واضحة بالنسبة للغرب: فالثـورة تعادي الغـرب، وتوجه إليه اللوم على تبعية إيـران، وفسادها بينما سياسة الشاه مؤيدة للغرب، وتشجع التغريب في إيران.

وقـد قـام أستـاذان جامعيـان بدراسـة حديثـة لاستقصـاء مشكلـة التغطية الإعلامية لإيران، وقد قدمت الدراسة تحليلًا شاملًا للتحيز الإعلامي، كان عنوان الدراسـة: (الصحافة الأمريكية وإيـران)، وشملت هذه الدراسة مرحلة طويلة من عـام ١٩٥١م، وحتـى الثورة الإسلامية، وكيف عالجـت الصحافة الأحداث، وكانت الأطروحة الأساسية في الدراسة، كما ذكر أحد المشاركين فيها «إن العيب الرئيسي في تغطيـة الصحافـة الأمريكيـة لإيـران في السنـوات الخمس والعشريـن الماضية تمثـل في تجاهل سياسات تلك الدولة، وتعود أصول هـذا الفشل إلى الافتراض بأن

(1) Ibid., p. 23.



تطلعات الإيرانيين السياسية ليست مهمة حقيقة، لقد كان المسئول عن تكوين هذا الافتراض، وتقويته إدارة الشئون الخارجية، وتم اعتماده من قبل المفاهيم السالفة ذات المركزية الغربية العالية، وأيديولوجية الحرب الباردة، وكان الاعتقاد الضمني في هذا الافتراض أن الشعب الإيراني لم يكن قادرًا في مجال السياسة، وأنه غير مؤهل لحكم نفسه، وغير مؤهل؛ ليكون لديه رغبة أصيلة للحرية، وبناء على هذه المعتقدات لدى صانعي السياسة، وقبولها دون نقد من الصحافيين؛ لذلك جاءت ثورة ١٩٧٨م مفاجأة للرسميين، وللجمهور العام[1].

ظل الجمهور الأمريكي في الظلال حول سياسة إيران بسبب نخبة السياسة الخارجية الأمريكية الذين كانوا هم النخبة السياسية، والنخبة البيروقراطية، ونخبة المصالح ممثلين جماعات المصالح الخاصة، ونخبة الاتصالات الذين كانوا هم صانعو القرار في وسائل الإعلام»[2]، لقد أوجد تعاون هذه النخبة صحافة الإذعان التي تعمل غالبًا بمكر؛ ذلك أن الأيديولوجية المسيطرة مشتركة بينهم، «ولأن النظرة نحو العالم مشتركة بشكل واسع داخل، وخارج النظام الصحافي حتى أنها لتظهر غير متعصبة، ويصبح مثل هذا التحيز الجماعي رأيًا مستقبليًا، ويصبح بالتالي أمرًا غير مرئي»[3]، وثمة حالات كثيرة كان التعصب فيها صريحًا؛ حيث اتخذ صانعو القرار في الإعلام قرارات «لم تكن مبنية على الاعتبارات المهنية، أو اقتصاديات جمع الأخبار، ولكن على الاهتمامات الأيديولوجية، وفهم المصالح القومية، وهناك أدلة كثيرة تقترح حقيقة مفادها: أن الصحافة أكثر تحيزًا للدولة مما تعترف به، والدليل موجود في تحليل التغطية الإخبارية لعدد من الأحداث الرئيسية؛ حيث كانت تهدد مصالح الولايات المتحدة بما في ذلك جواتيمالا سنة ١٩٥٤م، وجمهورية الدومينيكان في عام ١٩٦٥م، وشيلي سنة ١٩٧٣م، وتيمور الشرقية سنة ١٩٧٥م، ونيكاراغوا ١٩٧٨م، والأحداث المستمرة المتعلقة بالاتحاد

(1) William Dorman and M.Ferbang, The US Press and Iran: Foreign Policy and the Journalism of Defense. Berkeley: University of California, 1987, p. 13.

(2) Ibid., p. 29.

(3) Ibid., p. 207.

السوفيتـي، ونفقات الدفـاع، وهذا فقط عدد قليل من هــذه الدراسات»[1]، وبذلك فهذه الدراسة الجادة تكشف لنا أسطورة التقارير الإعلامية.

وبغض النظر عن صحة الآراء التي تدافع عنهـا الدراسة، فإنّ أبعادها الدينية قـد عكسـت الطابع العدائي القـديم للإسلام في الغرب، فالصحـافي نتاج المجتمع الغربـي، وهو منفتح إلى شخصية من تقاليدها عـدم الاهتمام إذا ما كان الإنسان متدينًـا أو علمانيًا. أما مصطلح: «الأصولية» -مثلًا- فقد حُمِّل كثيرًا من القيم من وجهـة النظر الغربية في محاولـة لتشويه الإسلام، والنقطـة الجوهرية في كل هذه المجـادلات هو كلمـا كان المسلمون أكثر علمانية، كلمـا انخفض تهديدهم للمصالح الغربيـة في أي بلد، ويعـدون بالتالي متحضرين، وكلما أصبـح المسلمون أكثر تدينًا أصبحـوا أكثر عداء للغـرب، فيوصفون عندهـا بأنهم «برابـرة»، و«متعصبون»، أو أصوليـون، وأحد الأعـذار التي قدمها الصحافيون الغربيـون للتغطية الإعلامية المتحيزة للشرق الأوسـط مسألة توفر المعلومات، فلو وفرت لهم الإمكانات، وأعطوا تأشـيرات بحرية، فإن تغطيتهم ستكون أفضـل، ولا يمكن البرهنة على هذا الرأي؛ لأن المسألة ليست مسألة توفر المعلومات، ولكنها الآراء المسبقة التي يؤمنون بها نحو الإسلام، هذه الآراء والصور والمعلومات الخاطئة قد انعكست على نظرتهم للواقع، ولن تؤثر إمكانية الحصول على معلومات تأثيرًا كبيرًا على مسار هذه النظرة.

وهنـاك جانـب آخر لمسألة الحصـول على معلومات، فحتى لـو سمح للصحافي أن يصـل إلى هدفه «فإلى أي حـد يكون الصحافيون، ورجـال الأخبار التنفيذيون هـم حراس الأخبار الذين يقررون أولوية النشر، ويختارون الإخباريين لتغطية هذه الأخبار؛ حيـث يغذون قرائهم بالآراء الجامدة والنظـرات المسبقة عن الحدث[2]؟ وهكـذا فمـا الضمان بأنه على الرغـم من توفر المعلومات بأنـه سيقدمون الحقائق بصـدق؟ وبكلمـات أخرى الإعلام مهتـم بالأشياء التـي تصنع «الأخبـار»، وليس مكونـات الحقيقـة؛ لأن الأخبار هـي التي تبيع الجريـدة، ونظـرًا لأن القرار الذي

(1) Ibid., p. 210.
(2) Ibid., p. 214.

يحـدد طبيعة الأخبار، وطبيعة «الحقيقة» هو قـرار مهم، فإن وسائل الإعلام تجيز الموضوعـات التـي تعتقد أنها تهـم قرائها فقـط، وهكذا فإنها تـبرز تلك الجوانب التـي تصنع الأخبـار، وتحذف تلك التي بالرغم من صدقهـا لا تصنـع أخبارًا، هذه الاعتبـارات حقيقية، وتجعل الصحـافي يعترف بصراحة «بأننـا نحن الذين نعمل في المهنـة لا نحتاج إلى إدوارد سعيد أو غيره مـن النقاد الأكاديميين؛ ليخبرونا بأن تغطيـة الإعـلام الأمريكي للـدول، والمجتمعـات الإسلامية ينقصهـا غالبًا العمق، والتوازن أو الفهم»[1].

إن معيار الأخبار يتغلب على معيار «الحقيقة» في الإعلام، ولا يقدم كثير أمل في التغيـير، ويتكون معيار الأخبار في كتب الصحافـة المنهجية الأمريكية من «الحدود الزمنية»، و«الأهمية التاريخية»، و«إمكانيـة المشكلة»، و«المسؤولية البشرية» التي درسـت في إطار اتخاذ الحكم المهني»[2]، وكان من المفترض أن تحمل الصحافيين علـى «أن يتذكـروا دائمًا أن ما نكتب عنه؟ وكيـف نكتب عنه؟ له دور مهم في تكوين الـرأي العـام في مجتمـع ديمقراطـي»[3]، ومـع ذلـك فـإن الصحافي يشعـر بأنه مسئـول اجتماعيًـا أمام مجتمعه، وبالتـالي يقدم الصحف، وجمهـوره بـ «صحافة المستهلك» التـي يمكن أن تتصرف بشكل لا مسئول، وتفعل ذلك باستغلال انفعالات الشعـوب الأخـرى، فليس مـن المدهش أن نجـد أن «العرب هم بلا شـك الضحية الحاليـة للصور السلبيـة الجامدة ليس فقط في التليفزيون، بـل في وسائل الإعلام الأخـرى في الولايات المتحدة الأمريكية»[4]، وما تفعلـه هذه الوسائل هو الزيادة في تأكيد معيار «الأخبار»، فالمراسلون قد وضعوا نظامًا لتفسير العالم الإسلامي، فما

---

(1) J.K.Colley, ‹The News from the Mideast: A Working Approach›in The Middle East Journl, Vol. 5, 1981, p. 466.

(٢) Ibid., p. 466.

(3) S.Bell, American Journalism: Practices, Constraints and Middle East Reportt age. M.W.C. Hudson (ed.). The American Media and the Arabs. Washington D.C: Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University, 1980, p. 51.

(4) Ibid., p. 52.

علـى الصحافي إلا أن يقرأ بضعة كتب، وبعض التقارير الصحافية، فيصبح جاهزًا لتغطية أخبار تلك الدولة.

ففـي حالة إيران «لا يعـرف الإخباريون اللغة الفارسيـة، وليس لديهم إحساس بالموقـع المحلي، أو تعاطف مع المجتمع، ويجـد أن خلفيته قد أصبحت لا تتناسب مع الأوضاع الثورية المتغيرة في إيران، وبالتالي يستأجر شخصًا محليًا؛ ليترجم له اللغة والأحـداث، وهـؤلاء الأشخاص عادة مـن المتغربين الذين لا يفهمـون الخميني، ولا دعوته (ولا يفهمـون الإسلام)، ويقود هذا إلى تأكيد الجهل والتقارير المضللة»[1]، ولـو افترضنا أن رجل الأخبار يريـد اكتشاف الحقيقة، فإن اعتمـاده على مصادر ثانوية، وهي متحيزة لن يكون الطريق لاكتشافها.

إن القيمـة «الإخبارية» للقصة المـراد تغطيتها تضع قيدًا آخـر على المراسلين، فالقيمـة الإخباريـة التي تضمن الإلحاح والسرعـة في التغطية تصبح حاجة ملحة، وبحس بسيط كهذا مـن المستحيل على الصحافي أن يستخـرج الحقيقة، وقد حدد اثنـان مـن المراسلين التلفزيونيـين تحديدًا صحيحًـا الضرر الذي يمكـن أن يفعله هـذا النوع من التغطية، فقد كتبـا أن السرعة في إعداد التقارير غالبًا ما يؤدي إلى التنازل عن العمـق والصدق في الأحداث، فالصورة الأولى التي تقدم إلى الجمهور تتسبـب في أضرار لا تستطيع التقارير المفصلـة تصحيحها فيما بعد[2]، إن الصـور التـي عَرَّفـت بالمشـرق العربي في ذلـك الحين لم تعرضهـم على أنهـم رجال دولة عظمـاء، ودبلوماسيون، وشعراء، ورجال صناعة، ومعلمون، وأعضاء أسر.. إلخ، بل علـى العكس من ذلك تُصَوِّرهـم «على أنهم جوعى للجنس، ومنهمكون في استغلال الفتيـات المراهقات جنسيًا، ويطعنـون من الخلف، وشيوخ بـترول أثرياء، ويملكون الجمـال والسيارات، ويجلسون في سيارات الليموزيـن السوداء، ويلبسون النظارات السـوداء، ويبـدون شريرون. وقد علـق أحد الملاحظين أن السبـب الجزئي لصورة التلفزيون الأمريكي عن الشخصـ زائغ البصر ذي الأنف الخطافي، الوسخ العربي العابسـ «هو الجهل، والكسـل، والخوف، الخوف من جماعـات الضغط أن تعد أي

(1) Ibid., p. 54.

(2) J.K Cooley, Op. cit., pp. 474-475.

نظـرة متوازنة للعـرب دعاية لهم»[1]، فإن أي تصويـر إيجابي للعرب سوف يعكس القيم الجميلة للإسلام، كما تبدو من خلال المؤمنين به.

إن دور جماعات الضغط النشطة المتمثلة في امتصاص أي نشاط معاد للإسلام في الغرب يجب ألا يقلل من أهميته، فاللوبي اليهودي –مثلاً– قوة ضاربة في الولايات المتحـدة[2]، فقـد كتب أحد كتّـاب الأعمدة المرموقين في جريـدة نيويورك تايمز في إجابته عن استفسار عن هذه الضغوط، قائلاً: «تملك إسرائيل أقوى جماعة ضغط في الولايـات المتحدة، وليس عنـدي شك بأن كل كتّاب الأعمدة... حريصون جداً في التعليـق على هـذا الموضوع»[3]، وبهذا المنظور فإن موضوعيـة الإعلام –كما ذكرنا سابقًا– إنما هي ضرب من الخيال.

الاستنتاج:

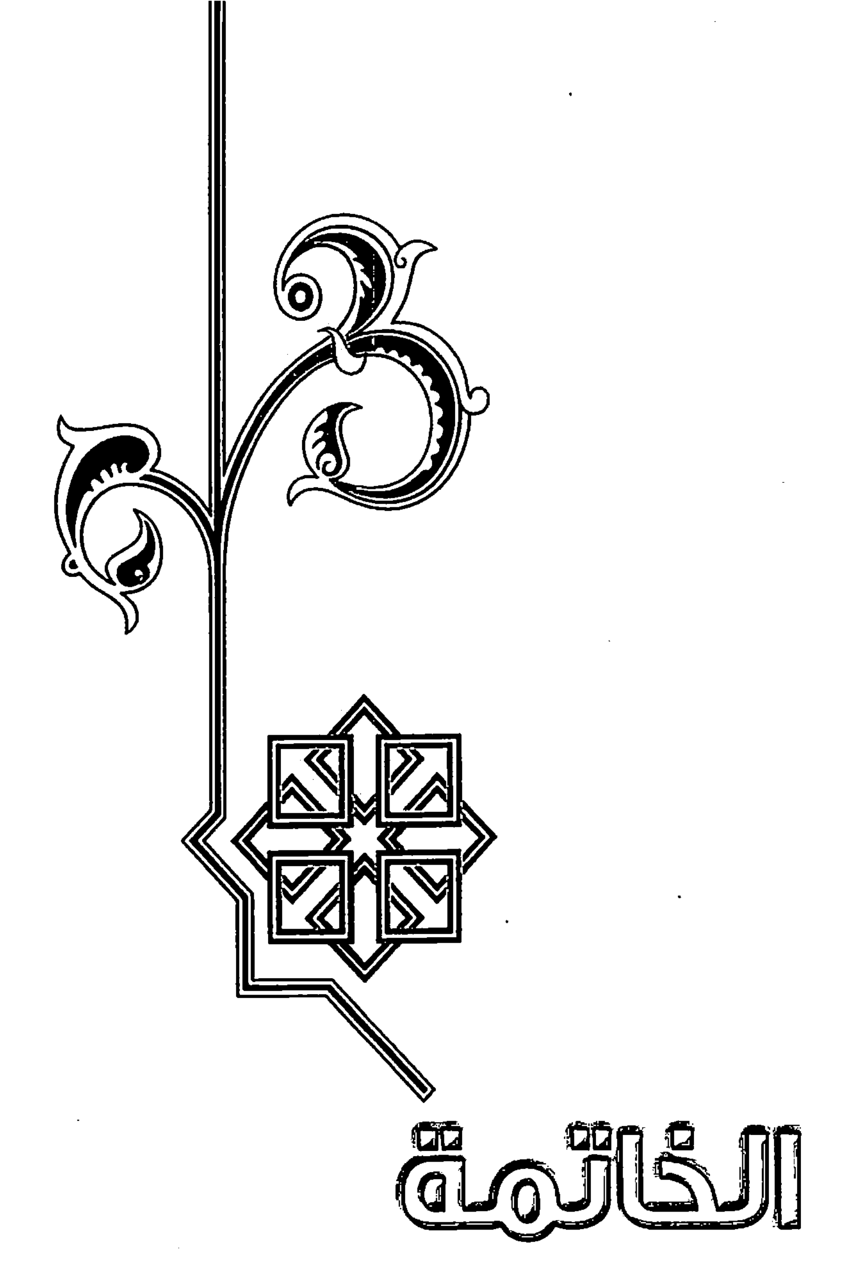
مـا تـزال وسائل الإعـلام واقعـة تحـت سيطـرة وكالات الأنبـاء الغربية ذات الإمكانات الجيدة والراقية، وما تزال وسائل الإعلام الغربية أداة قوية في التأثير في الرأي العام في الدول الديمقراطية، وقد خدمت بهذه الطريقة المصالح السياسية، والاقتصاديـة، والتخطيطية، وبالتـالي فتغطية وسائل الإعلام هـذه كانت محابية للدول المؤيدة للغرب في العالم، وإذا ما خرجت دولة عن هذا الإطار لم تجد التأييد من وسائل الإعلام، بل غالبًا ما تنشر عنها أخبارًا خاطئة. وما تزال وسائل الإعلام هي ذراع الدعاية الغربية، والإسلام هو أسوأ ضحية لها.

(1) Jack Shaheen, American Television and Arabs in Dehumanizing Rotes in M.C.Hudson, Ibid., pp. 39-4.

(2) See: A. Hussein, The United States and Israel: The Politics of Special Relationn ship. Islamabad: Auid-e-Azam University, Area Studies Department, 1987.

(3) H.Piety, Bias in American Editorial Pages in Edmund Ghareeb (ed.), Split Verr sion. Op. cit., p. 140.





الخاتمة

لابـد أن هذا العرض الموجز قد جعل القـرّاء على وعي باتجاهات الفكر المعادي للإسـلام، وأشكالـه المختلفـة، ومحتوياته، كما هـو متبع في الغـرب، وسيكون لدى الإنسـان مـن خلال هـذا التقليـد المعـادي للإسلام فكـرة عامة عن فهـم الغرب للإسلام. إن الهجوم الأساس لمعاداة الإسلام واضح من خلال المستشرقين الجدد، ودراسات علم الاجتماع، وتغطية وسائل الإعلام. إن العلماء الرحّالة الذين اعتادوا أن يتجسسـوا لبلادهـم تجسسًا مباشـرًا، أو غير مباشر نادرًا مـا يوجدون الآن في البـلاد الإسلامية، فقـد استعاض الغرب عنهم بـوكالات الاستخبارات المتطورة في العالم الغربي، وهم يهتمون بصفة خاصة بدور الذين يطلق عليهم التسمية الرائجة «الأصوليـين»، والمجموعـات «الإرهابيـة» في العالم الإسلامي، مثـل هؤلاء الوكلاء يُقتلـون إذا عُثِر عليهم في بعض البلاد الإسلامية، فقد قتل تسعة وكلاء للمخابرات المركزية الأمريكية في انفجار حدث في السفارة الأمريكية في لبنان[1].

تمـر هذه الحركة غير المرئية بأعنـف مراحلها خلف الستار، فلم تعد الحملات الصليبيـة الطريقة الشعبية، وبدلًا من ذلك تحـدث مواجهة عسكرية محدودة بين النصـارى والمسلمين في لبنان، وفي مصر، وفي السـودان، ومع النصرانية ثمة عدد آخـر من الدوافـع مثل السيطـرة على الـثروات الطبيعية ذات الطبيعـة السياسية والاقتصاديـة، وتستمـر النزعة العنصرية، والصـور العنصرية الجامدة في الدول الغربيـة، وقـد وجـدت هذه فقط علـى أسـاس لون البشـرة، ومنذ ظهـور حركات الصحوة الإسلامية في الدول الإسلامية أصبح الغرب في حالة انتباه متزايد بسبب وجود المسلمـين في أوروبا[2]، ولم ينس الغرب وجود العرب في أسبانيا، والأتراك في أوروبـا الشرقية قبل عدة قرون، فالوجود الإسلامي الجديد بالتالي مزعج لأسباب سياسية ودينية.

(1) See: Claudia Wright, Scared Rage. London: Andre Duetsch, 1986, p. 16.
(2) Thomas Gerhoim, et, al. (ed.), The New Islamic Presence in Western Europe. London: Mansell Publication, 1988.



ولكـن يجـب ألا نقلل مـن شأن حرب الغـرب للإسلام، ففي العصـور الوسطى كان علـى الإسلام مواجهـة النصرانية فقط، أما اليـوم فالإسلام يواجه عددًا من الجبهات التي فتحت ضده، ومنها: العلمانية، والماركسية، والاشتراكية... إلخ، وكلها وجدت الإسلام عائقًا في طريق توسعها. إن التهديد الذي يواجه الإسلام من الغرب العلمـاني أمر خطير، والسبـب: أن مصالح العالم الغربـي الاقتصادية والسياسية راسخـة جـدًا في العالم الإسلامي، وحيث إن هذه المصالـح بالإضافة إلى التحديث المغلّـف بالتغريب المُصدَّر لهذه الدول، وكذلك التفسير الغربي للإسلام قد أوجدت مشكلات خطيرة، وإحدى هذه المشكلات أنها وَلَّدت مواقف معادية للغرب في العالم الإسلامي، وليس مما يقع في نطاق هذه الدراسة الحديث عن هذا الموضوع، والمهم ملاحظتـه هنا أنه ليس من الممكن فهم الشعـور المعادي للغرب في العالم الإسلامي دون فهم عداء الغرب التقليدي للإسلام.

وما على الإنسان سوى أن يتناول أية دراسة تتعلق بالإسلام، أو بجانب منه كتبها عـالم غربي ليرى كم مـن مراجعها ذي طابع معادٍ للإسلام؟ فلو قبل هؤلاء العلماء هذه المصادر دون نقد على أنها أصيلة عندئذ يكونُ الاستنتاج المعروف سلفًا أن مثل هذه الدراسة ستكون متحيزة بالتعبير اللطيف، بل سيكون فهمه للمصادر الأساسية للإسـلام مشوبًا بقبول التفسير المعادي للإسلام الذي كتبه التقليديون أيضًا، ومن الإنصـاف الاعتراف بأنه قد يوجد علماء يدركون وجـود معلومات خاطئة أو كاذبة منتشـرة لدى الكُتَّاب التقليديين، وربما انتقدوا هـذه الكتابات في دراساتهم، ولكن هـؤلاء قلة، ولم يؤثـروا التأثير المحسوس علـى مجمل الدراسـات الاستشراقية، أو خبراء الشرق الأوسط في الإسلام.

إن خـبراء الشـرق الأوسـط في الإسـلام، ووسائـل الإعـلام تناسـب المصالح السياسية، والتخطيطيـة، والعسكرية، والاقتصاديـة لحكوماتهم العلمانية، ويجب أن لا ننسـى أن مثل هؤلاء الخبراء بغض النظـر عن ولاءاتهم القومية وارتباطاتهم إنمـا هـم نتاج الحضـارة الغربيـة، وقد تشبعـوا بالتقليـد المعادي للإسـلام، وقد اندمجـت هذه المواقـف ذات المركزية العرقيـة في ذواتهم مما يجعـل من الصعب

عليهـم أن يصبحوا موضوعيين بما فيه الكفايـة؛ ليستأصلوا المعلومات الخاطئة، أو المكذوبة، وعندما يُقَوِّض هذا التقليد المعادي للإسلام فرصة فهم الإسلام، ويؤلِّف الأساس لأي دراسات إسلامية يقـوم بها الأكاديميون الغربيون، فإن ذلك يهزم أيَّ ادعـاء بالموضوعية، وفي الحقيقة ثمـة خطأ أساس وتناقض مـا زال ينتظر البحث والاستقصـاء في مجال الدراسات الإسلامية في الغـرب، والسؤال هو: إلى أي مدى تعـد الدراسات الإسلامية التي تحمل صفة الموضوعية حقًّا كذلك؟! لو كان المطلوب بذل جهد صادق بين الغرب والإسلام، فعلى الغرب أن يعيد تقويمه لفهمه للإسلام، ويطـرح سـؤالاً خطيرًا علـى نفسه: هل من الممكـن أن يكون له علاقـات سابقة مع المسلمـين أو يتوقـع التعـاون منهـم بينما يلجـأ هو (الغـرب) في أي فرصـة لإهانة المسلمين وتشويه دينهم؟[1].

(١) الدليل على ذلك: إصرار الغرب على حماية سلمان رشدي بحجة حرية الفكر. (المترجم).

